

سهى الصوفي

سرداب العشق

رواية

المركز الثقافي العربي

سهى الصوفي

سرداب العشق

المركز الثقافي العربي

المركز الثقافي العربي

سهى الصوفي

سرداب العشق

المركز الثقافي العربي

المركز الثقافي العربي

الكتاب

سرداب العشق

تأليف

سهى الصوفي

الطبعة

الأولى ، 2012

عدد الصفحات: 168

القياس: 14 x 21

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-532-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

١

.... لله

الفصل الأول

لم يكن في المطار ما يوحي بأن دخول دمشق لا يشبه دخول مدينة أخرى، ولكن الصوت الذي تحمله حنجرة الياسمين، قال كلمته ووقف يتفرج. . أتراها القدس سبقتني إليكِ تمهد الطريق إلى مدينةٍ تفوح منها روائح الحكايا؟ أم أن الحكايات تريد جرنا إلى حاراتها لنعلق بزحمة أطياف خلقها اللقاء قبل اللقاء؟

كنت أعرف انكْ لن تمر.. مثلكَ لا يعبر ، مثلكَ لا يختفي، مثلك يسّمر ما يبقى منه بمسامير حروفٍ نسيها عن قصدٍ في جعبة الصدفة.. منذ عناق اسمينا، وصوت الشام يندن في مدافن أمنياتي، افتحي له منفذاً للعبور..

لم أخمن وأنا اعبر بوابات دمشق أنكِ هناك، واقفة تحملين نبوءة عودة؟ كل ما فيكِ كان يتوعدني، وكل ما فيّ كان يرجوني لأستجيب. . فلمَ أنت تلك الصحفية دون غيرها والدمشقية دون غيرها من أجرى معي حواراً في ذلك المؤتمر؟ أما زال في جعبة الحكايات صفحات لاحتمال؟ ألم تضجر القصص من أبطال يزجها الشغف عناويناً للقاءات، أم أن الآلهة السادية لا تكتفي من لعبة الصدف والهوى العابر مسام !المصافحة الأولى ؟

كان علي أن أعرف منذ البداية أنكَ تكره الأشياء العابرة، وإلا لم إصراركَ على تسجيل صوتكَ في ذاكرتي، وشد حروف اسمكَ إلى

ورقي؟ أكنت تخشى أن تسقط سهواً من حقيبتي لو كتبتُ حوارنا على الورق ومضيت. كان علي أن أعرف منذ اللحظة الأولى، منذ المصافحة الأولى، أنك رجل تكره العبور حتى الملم أوراقي وأرحل، ولكن مهلاً..سأفشي لك سراً..ما كنت سأرحل

وأنا ما كنت لأرحل دونكِ. . . بحة صوتك، ملمس يدك وهي تناجي أصابعي لأكتبك، صوتك وهو يقول «ستعود يوماً إلى دمشق» ما كانوا ليتركوني أرحل دونكِ. . . فكيف أخون حدسي واهرب من امرأة تحمل اسماً بعراقة مدينتها،ونبؤءةً بتعاسة مدينتي؟

حين استلمتُ من مدير التحرير تكليفاً بتغطية مؤتمر الكتّاب العرب، لم أعتقد للحظة أني سأحفظ تاريخ يومٍ، وملامح رجل لم يستوقفني أبداً، رغم إطلالاته التلفزيونية الكثيرة، ولكني لم استعن بالقلم لكتابة التاريخ، الكون كان يكتبك في ورقة ما، في ديوان ما، في احتفالية ما يوقعها محمود درويش على زهر لوزه ومعه نبوءة بحكاية ما..

عذراً، لأني ظننتكِ غنيمةَ الرحلة التي أفتح لها عادةً أبواب غرفي العابرة؟ أسرة العبور همست لي في الليل: «ألا تخجل من زج ياسمينها في ملاءاتي»، فأغمضتُ عيني،لا خجلاً من عبثي، بل حلماً ببياضك يخربط ملاءاتي ويعيد عبثي إلى رشده. .

كيف عرفتَ أني سأبحثُ عن صوتكَ في عتمةِ الضجر؟ أكان واضحاً لك أني امرأة ستتلمس الصوت في الظلمة لتتلصص على حروف لم تُقَل؟حين دعوتني إلى الجلوس بحجة أن الحديث سيطول. مشيت معك إلى أول طاولة، أخرجت الورق، لم يعجبك الورق، سألتني إن كنت سأسجل المقابلة أم لا، فهززتُ رأسي، وبدأنا ... بمَ بدأنا يومها........أتعرف؟

كنت أسمع صوتاً متلعثماً في داخلي، صوتاً يجيد الصوت، ولكنه عاجز عنه.. لمَ، كيف، لا تسأليني... قد تعرف جنيات الحكايات الجواب، أما نحن، فلا..

حين سحبتَ القلمَ من يدي، وكتبت اسمكَ في أعلى الورقة، تساءلت: لمَّ يريد هذا الغريب زج اسمه في ورقي؟ لم تتركَ لي وقتاً لأفكر، ولم تترك لي باب خروج لأهرب، أكملنا الحوار، قطعنا الثلاثين دقيقة، ومضينا..

منذ البداية، راودني اسمكِ عن نفسي، دفعني إلى حافة الهاوية، فهويت أنا المسلح ضد النساء، المحصن ضد أمراض الهجوم والتسلل، أهكذا تسلم الأوطان سرها إلى نسائها، بهذا الجمال، بهذه السهولة، ننزلق في هواها راغبين في انزلاقة أخرى وأخرى؟؟

حين أخبرتني أنها زيارتكَ الأولى إلى دمشق، عرفتُ أنك ستعود، لا بد ستعود، بواباتها السبع لا تُفتح أمام الراحلين، بواباتها فقط لاستقبال عشاقها العائدين ولو بعد حين، ويبدو أني سأكسب الرهان أيها المقدسي الجميل..

كلانا سيكسب الرهان لو استجبنا لتخمينات الحروف وهي تتساقط من العين حبراً، المهزوم في عرف الصدف هو رابح من نوع خاص، فمن قال أن الرابح فقط من تهلل له الأرض وتزغرد له صفحات الحكايات؟ تعالي نسلم أنفسنا لتلك اللعبة، ونتفرج على هزيمتنا كيف ستسلمنا كأس الانتصار على الأقل بيننا وبين ستائر الذاكرة...؟

بعد أن تركتَ لوبي الفندق، شعرت بإشارات الاستفهام تلملم

حروف الحيرة على عجل، تأخذ نفساً عميقاً وتتابع التحليق فوق ما بقي عالقاً من روائحنا، تريد بعضاً من يقين، وكثيراً من وهم حتى لا تحط على عتباتنا، فتخسر الهزائم حكايتنا..

أصعب شيء ألا نعرف لم نقوم بما نقوم به، حين بحثت عن البزنس كارت خاصتكِ وأنا في السماء عائداً إلى باريس، تساءلت: لماذا أبحث عنها؟ لم تعد غنيمة، ولم تعد على مقربة من سرير الرحلات العابر، ومع ذلك تأملت اسمكِ طويلاً حتى تعبت عيناي،استحضرت كلماتك، فشعرت بالغيرة منك، تذكرتك حين قلت: أنا دمشقية، أنا من هنا، ألأني رجل يحمل في هويته مدينتين، و في رأسه ذاكرتين؟ ألأني مضطر دائماً أن أقدم نفسي في كل مناسبة وأقول «فلسطيني فرنسي»، جواز السفر الذي أحمله يحتم عليه ذكر المدينة الثانية التي منحتني بيتاً ، لكن بيتي هناك، حيث ماتت أمي و الطفل الذي كان يرسم بيتاً قرب السنديان ليعيش فيه العمر كله؟

أكذبُ إن قلت أني لم أتوقع رسالةً منكَ، تقول فيها أي شيء، أو حتى لا تقول فيها شيئا، نسيت عدد المرات التي أعدت بها قراءة ما كتبتهُ لي، كنت أشعر بأنفاس دمشق تترنح على أهذاب حروفك، سمعتها، استنشقتها، خفت منها، ولأول مرة أخاف من مدينة تزرع عشقها في عروقنا ساعة الولادة الأولى، ألأني كنت أخشى الكذب عليها إن سألتني عن سر فرحي بكلماتك؟

ما من شيء كان ليحول بيني وبين أن أكتب إليك ، ساعة وصولي، دقيقة وصولي، حقائبي التي تعرف أمكنتها في بيتي بقيت ساكنة، كل شيء في البيت كان ساكناً، إلا أنا، أنا الخارج من الأنا والمقبل على أناك بكل ما أوتي من لهفة . .

أخاف أن تلسعك أناي إن اقتربت منها أكثر، أناي لا تتحمل «أنا» القدس الساكنة حنجرتك رغم ما حدث، أناي لا تملك طوابق للإيجار، فكيف ستجد لها مكاناً لأخذ النَفس؟

لا تحملي همي، اتركيني أتسلل في أناك، أتوحد مع طوابقك، لن أبحث عن متر وسبعين سم لأسكن، كل ما أريده أن أكون فيك، اقسم أنك لن تشعرِي بي، وحالما تتعبين من ظلي، انفخي قليلاً، قليلاً جداً، ولن تجدِي لي أثراً . . .

ظلك الذي سبقك يحوم حولي، يعاين أمكنتي، يتفحصها، يكتشفها ليعرف أياً منها قابل للاشتعال، يقف على مقربة من ركامي، يتنهد، يستغرب انطفاء ضوئي، يقترب، يعانق ما تبقى من بقاياي وينفخ بعضاً من ضوئه..

الفصل الثاني

حين كتبَ لها في المرة الأولى، لم يقم بقراءة ما خطه، كان مستعجلاً في دق مسامير صلبه على بوابات مدينتها. تَنَهدهُ وهو يكتب اسمها كان مفضوحاً على الأقل بالنسبة إلى حروفه التي لم تعتد منه الوقوع السريع في شباك مدينة..

في ذلك اليوم كان مأسوراً بانتظار ردها، أتراها ستشرب معه خمر الحروف وتسكر على مرآى الكلمة؟ أتراها ستمد حروفها على شرفات لقاء يومي كان يحضّر نفسه للدخول في تفاصيل الحكاية؟ أم أن بابها لن يفتح لرحالة لا يملك من وطنه إلا خارطته والقليل من الذكريات..

مشاغله الكثيرة لم تبعده عنها، كان يقترب منها، من ضحكتها، من يديها تصافحانه، كان يفكر فيها وهو يغادر المعهد العربي إلى مكتبه في اليوم التالي، ويفكر فيها وهو ينهي مقالاته الأسبوعية الموزعة في أشهر الجرائد العربية، كان باختصار مفتوناً بها، تلك المرأة الموشحة برائحة شامها.

عاد في الليل إلى بيته متلهفاً، باحثاً عن احتمال رد، تجاوب، رفض، لو حدث لتغيرت وجهة الرحلة من أولها، ولكن كل ذلك لم يحدث، لم يكن من السهل أن يمر بدمشق من دون أن يحمل وشمها ويكتبه في جدارية القلب رواية بلا نهاية.

لم يعرف من أين يقرأ ردها، من الأخير، من البداية، من وسط الكلام، كان يفتش سراديب كلماتها، يبحث عن حرف سقط منها في أزقة رسالتها، أو عن حرف نسيت أخذه وهي تلملم حقيبة لغتها من أمام محطة البياض، ولكنها قالت ما تريد قوله ومضت لتبقى حية في بياض الورق المتعمد بهما منذ تلك الليلة.

دمشق التي عاشت بعد ذلك الصباح مع القدس جنباً إلى جنب في حضن ذاكرته، كانت تقرأ الطالع، وتبني لهما أعمدة حكاية سيضّمنها تاريخ العشق في صفحاته، كانت تّشيد جسور اللقاءات يوماً وراء يوم ليلتقيا على حافة الجسر ، يحملان حقيبة من الكلمات، يفرغ ما في لهفته على طول البياض، وتفرش ما في حلمها على عرض التمني، وصوت النبوءة يعانق أثير الكون.

كلاهما كان يحب الحروف والشعر، وكلاهما يعشق نزارا ودرويش، وكلاهما ولد من أرحام مدن لا تشبه أرحام مدن الكون، فما الذي تبغيه دمشق من القدس، وما الذي تنتظره القدس من دمشق؟

الفصل الثالث

كل شيء في بيتها كان يمهد لقدومه، بيتها المُبعد عن دمشق القديمة، جسدها المهجور طوعاً، موسيقاها التي تنتظر شريكاً لآهاتها، كل ذلك جعلها امرأة جاهزة للحب، للسقوط على صدر رجل يعرف كيف يقطف عناقيد الهوى المعلقة في عنق امرأة.

لم يصب الكون بدهشة وهو يراه مأسوراً بها منذ اللحظة الأولى، كان يعرف أن هكذا حكاية ستحدث، لا بد أن تحدث، وإلا لمَ دخلت عالم الصحافة، لمَ عملتْ في تلك المجلة، لمَ غيرت منحى مستقبلها؟ أليس لتلتقيه ذات صباح، جنون، وذات بداية..

منذ لحظات اللقاء الأول، سمعت همساً ينبئها بالآتي، زواجها لم يوقف مد ذاك الهمس المقبل بحذر، والمصر بجنون. استسلمت إلى غليان اللحظة من دون أن تفكر باحتمالات اللقاء الصعبة مع رجل لا يقيم على مقربة من أمنية. كانت كالتربة المحضرة لثمرة الحب، المناخ والفصل وعذابات الروح اجتمعت لتساعدها على فتح البوابة واستقباله. لم تفكر لحظة بزوجها، ببناتها، بحياتها، لسعة الحب أفقدتها توازنها كما أفقدته منطقه، استقبلت رسالته الأولى بتعطش، وانهمرت في كتابة رسالتها الأولى بنهم، وبين التعطش والنهم، كانت تكمن حياتها مع نزار، الزوج الذي كتب ورقة نعيه

بخط يديه حين باع ياسمين دمشق مقابل حصة في بورصة الأوطان، فالشمس غيرت وجهتها، لم تعد تصل باب توما بعد أن قرر الزوج تحويل البيت العتيق إلى مطعم يؤوي سكارى الليل والنهار. لم يثنه شيء عن مشروعه، أفرغ البيت، أخرج من الباب الخشبي القديم حكايات وأحلاما، وفتح النوافذ لنراجيل وطاولات وكراسي تتناسب وطيف العصر الجديد.

نحيب الياسمين كان يصل مسامع الحارة، يدق أبواب البيوت بيتاً بيتاً، يتوسل بكبرياء أن يبقى متعربشاً على أنفاس ساكنيه، ولكن ما من أحد استطاع مساعدته، حتى الزوجة التي تركت برلين وعادت إلى دمشق، عجزت عن حماية عبقه من الضياع في رائحة الدخان القادم بعد حين. مهرها الذي كان مقدمه ياسمين، ومؤخره ياسمين لم يكن أكثر من فخ لدمشقية عشقت عن طريق الخطأ وطناً.

حضرت جنّار الياسمين كغريب لا يملك حقاً حتى بتوديع القتيل والاعتذار منه، ذلك الوطن الذي أحبته من لحظة الغربة الأولى كان يتفرج عليها وهي عاجزة عن كف يد زوجها عن قطف الياسمين وبيعه لعابري الأوطان.

لم تعرف قبل سفرها إلى برلين أن دمشق ستتحول إلى حب يأسرها بعنق زجاجة ملأتها من ماء بردى، ولكن الماء كان له فعل السحر، فلدمشق رائحة غير رائحة الياسمين، وغير رائحة التاريخ، لدمشق رائحة الماء الذي استحمت به يوم مولدها.

كان عشق الوطن آخر عشق تتمنى التوحد به حين قصدت الغربة، ولكنها ذابت فيه حتى الصميم، فراحت برسالة عجولة تتوسل لأبيها أن يرسل لها خارطة سورية، وفي عناق عجول،

راحت تقبل ورقة عادية، تحمل رسماً عادياً، ولكن عطراً ما غير عادٍ كان يفوح مّن مسامات جسد تحمله امرأة فاتنة اسمها دمشق..

حين تعرفت إلى نزار في برلين، أدركت ومنذ اللقاء الأول أنه جاء ليعيدها إلى دمشق، كان من رجال الأعمال الذين يعرفون الوصول إلى الهدف بأقصر الطرق، لم يكلفه التقرب منها غير الحديث عن دمشق، وبيت جده الذي سيتزوج به في باب توما، كان يحكي عن طوق الياسمين الذي سيكلل زوجته به. ياسمينة ياسمينة سيقطفها لها من البيت العتيق، ياسمينة ياسمينة سيزين بها أكليلاً تغار منه أشجار الياسمين في دمشق، امرأته ودمشق سيتنافسان على قلبه، ومن غيرها ستكون على قدر تلك المنافسة والتحدي.

لم يخفَ عن والدها أن حب الياسمين هو سبب قبولها برجل لا تعرف عنه إلا أنه من أعرق بيوت شامها، لبت دعوة دمشق للعودة، وتركت برلين قبل أن تتقن لغتها وتدرس الصيدلة كي تستلم صيدلية والدها، لكن رائحة الوطن استعادتها، وحبال القدر شدتها من جديد إلى مدينة يدين لها العشاق بحكاياتهم.

لم تأخذ معها الكثير حين عادت دمشق: ثيابها وخريطة سورية التي انتزعتها من جدران غرفة نسيت أن تغلق بابها وهي تهم بالرحيل.

في دمشق، وفى نزار بالوعد، كان بانتظارها ومعه طوق الياسمين وخاتم الزواج. ركضت إليه وكأنها تركض إلى وطن وذاكرة وحكاية توقد الحطب لتحرقها لاحقاً.

ما زال مطار دمشق الدولي يتذكر كيف وضع نزار على رأس عروسه طوق الياسمين،الكل صفق في تلك اللحظة لأحلى مشهد

حب رأوه في حياتهم، لم يشك أحد منهم أن الحب الذي صفقوا له ما هو إلا حبها لوطنها. زواجها بنزار الذي كان عقد زواج بدمشق سرعان ما أصبح باطلاً، ومع ذلك لم تتخل يوماً عن مفتاح البيت العتيق، بقي معها، تنقله من حقيبة إلى أخرى، ومن رجاء إلى خيبة، كانت تعرف أن التخلي عنه اعتراف بأنها شريكة في بيع مدينتها، وكان يكفيها في تلك الفترة أن تكون شريكته في سرير وابنتين واحدة اسمها شام وأخرى اسمها ياسمين.

الفصل الرابع

حفظتْ عنوانهُ البريدي تحت اسم الرحالة، صدفة هي، همس سماوي لم تعرفه، كل ما كانت تعرفه أن رحالة فلسطيني أوقف مرساتهُ دون إنذارٍ في مرفئها، رحالة لم يتكهن أن مرساته لن تلبيه حين سيعقد العزم على المضي، مرساته ستتمرد على قراره، ستعانده، ستعصيه، ستأبى الرحيل عن ميناء روحها: من يدخل دمشق يتورط في عشقها من الوريد إلى الوريد، نبوءة قرأتها الحروف الملتهبة، والانتظار المحتار على بوابات الصبح والليل، ومع ذلك عجز عن قراءتها، عن فهمها، عن فك شيفرتها حتى وهو يفقد جواز سفره في حارات مدينتها وأزقتها القديمة.

كان يشهد توقف بوصلته عند مدينتها ولكنه لم يفهم كلام النبوءة جيداً إلا حين رمى عناوين نسائه من نافذة كونها عنواناً وراء عنوان، طوفانه اللاحق في جلدها لم ينزع آثار النساء العالقة على جسده فحسب، بل أغرق كل الأسماء التي حملتها مخيلته ليبقى اسمها ميناء اللهفة الأخير الذي من غير الممكن أن تقصده مراكب الشهوات.

تمر بنا في اليوم الواحد عشرات الأسماء، ولكنه اسم واحد ذاك الذي يعلق في ذاكرتنا، اسم لم ننتظره ولم نقتف أثره ومع ذلك يأتينا، يعاود الاقتراب، يلامسنا ليذكرنا بوجوده، فنردده، نمّرن أنفسنا على اعتباره حقيقة، مع أن كل المؤشرات تدل على أنه وليد صدفة قد لا تنجب يوماً أحلى من هكذا بداية..

كان يكفيه ما يصله منها، القليل من كلماتها يشبع حاجته إلى الإحساس بها، إنها هناك، في مدينتها تغزل الحكاية بحروف من ياسمين، وهو هنا، في مدينة بديلة يبني مركباً من ورق ليبحر إليها فارداً صدره بكل العشق الذي قد يحمله رجل لامرأة..

نعم يا صديقتي المتورطة في غرام الكلمات،هي الأشياء كما ذكرت، أحلاها ما يأتي من دون موعد، صدفة تحل علينا أو تهبط بين ساعات اللامعنى فتوقف دقاتها وتقول لنا:إلى أين؟ فلنّمرن أنفسنا على أنه حقيقة، أحلى الحقائق تبدأ بصدفة يا ابنة الأمويين..

كان يكتب إليها آخر الليل، لترد على رسالته مع فنجان قهوتها الصباحية، لعبة حروف لم تتكهن بالجنون الواقف على ضفاف وادي أشبيلية الكبير.

كتبا عن كل شيء، ولم يكتبا عن شيء. المماطلة كانت فعل مشترك أقدما عليه خوفاً من معاودة انتظار الغيب، لم يعترف لها بزواجه، ولم تعترف له بزواجها، عاشا الحرف بنبض الحرف، مخرج هو، مأوى يفترشه الضجر، ملاذ يهربان منه إليه، لم يبحثا عن جواب وسط متعة اللقاءات، كل ما أراداه حروفاً ونقاطاً وخطوطاً تشد أوتادها بينهما، ولكن مع الوقت، سارعت الرغبة لفتح أبواب أخرى من اللهفة.

الرسائل لم تعد تشبع الشوق، هناك صوت يئن، يحترق للبوح، والبوح في عرف الحكايات شرارة الحريق.

لم أعد أقوى على الانتظار، انتظريني الساعة الثانية عشر بتوقيت دمشق، ارتدي أحلى حروفك وتعالي..

على رؤوس أصابع الخوف غادرت سريرها، جلست أمام

الكومبيوتر وقلبها يدق بسرعة، كان ينتظرها محموماً بشغف لقياها وحمى البوح. العالم كان نائماً في مدينتها على غير عادته، والشوارع خالية إلا من صوت أزنا فور يعزف على الوتر أحلى ما قد يخرج من الوتر.

لأول مرة يلتقيان ليلاً ، يلتقيان ليكتبا، ليجربا طعم الحرف المفعم بالنفَس وهو يلهث على مرآى الحرف.

أهلاً بدمشق تتصدر الليل نجمةً أشعت في عينيك يوم التقينا..

ما للقدس تغازلني رغم الوجع و الدم والموتى المتراصين تحت تربتها..

ألم يخبروكِ أن الوجع رحم الأشياء الجميلة التي لا يخلفها الفرح..

لا تحدثني عن الفرح، رأيته يستشهد من منصات بنيت على أشلاء تاريخنا..

ومع ذلك يبقى له مساحة تنفس..

إنه يتنفس برئة واحدة..

ولكنه يتنفس..

حلوة أنفاسه فيك أيها الفلسطيني رغم ما حدث..

لن نرضى أن تساق أنفاسنا أيضاً إلى قوافل التهجير..

كم أحبكم..

من.. نحن !

أجل أنتم، أغصان الزيتون التي ما زالت تثمر شعباً مصراً على الحياة..

لم يتعب أزنافور من الغناء في الساعات الثلاثة التي كتبا فيها، أوراق الليل امتلأت بشغف متنكر بثوب غير ثوبه، صوت ذلك العجوز الجميل بقي ساهراً كعربيد مصرٍ على انتظار الفجر ليقّبل جسد دمشق قبل المضي..

في سريرها كانت تستعيد كلماته، وأنفاس زوجها تصر على تذكيرها بأنها على ذمة رجل ترك دمشقيته ولحق قطاع الطرق..

وهو، هو، يتقلب في سريره حاملاً في مخيلته بقايا صورة لامرأة لا يتذكر إلا ضحكتها وصوتها الأبح يتنبأ له بالعودة ..

هل ترتشف صاحبة الكلام الجميل فنجان قهوة الصباح وراء نافذة تهطل منها أشعة شمس شرقية جميلة، فتبتسم؟ أم تدور في فلك الأشياء الصغيرة التي لا تنتهي كحلقة لانهائية من الانشغال وهدر الحياة في التفاصيل المملة.

يا له من فرق بين فنجان قهوة مسترخ يهزأ بالحياة وسرعة إيقاعها، وبين صخب الانشغال الكوني باللامعنى. ويا لنا من بشر تعساء إذ ننزلق إلى الثانية ونهرق فناجين قهوتنا بسرعة عند أول فرصة تلوح لنا للالتحاق بسعار حياتنا. كأنما نتوه بين فنجان قهوة صغير مستقر وعاصفة من اللامعنى تحيط به وتحاول أن تقلبه، لكنه ثابت لا يتزحزح أو ينقلب.

أقف هذا الصباح على الحد بين قهوتك ولا معنى الحياة، أصافحك بعيد أن تنهي الرشفة الأخيرة وتنهضين لتسلمي نفسك إلى دوران الحياة.

أقف على الحد الفاصل بين قهوتك وذلك الدوران، أبادلك ابتسامة بابتسامة وأقول صباح الخير..

الفصل الخامس

مواويل الحروف التي كانت تزف لقاءاتهما الصباحية والمسائية من غير موعد حيناً وعلى موقد من الانتظار اللذيذ حيناً آخر تحولتِ إلى لقاءات سرية تخدش حرمة الليل وحرمة العهود التي قطعها كل منهما إلى شريكه.

يركض إلى الكومبيوتر بعد منتصف الليل عارياً يريد أن يلبس حروفها ليتدفأ بها، لم تعد علاقته الزوجية تفيه غرضه، إنه يشتهيها هي: تلك المرأة التي تصوغ مع المستحيل حكاية شهوة حزينة..

كان يبني معها علاقة من نوع خاص، علاقة لم يجربها في كل المغامرات التي لعب فيها دور البطولة. لم يملك أمام كلماتها إلا الخروج من شرنقة كتاباته السياسية التي كبل نفسه بها منذ زمن بعيد. كثيراً ما تساءل: من التي تشدني أكثر: حروفها أم هي؟ صوت في داخله يقول هي، فيرد صوت آخر: لكنك لا تعرفها، فتجيب حنجرة الصوتين في آن واحد: إنها هي والنص معاً، فلولاها لما كان النص، ولولا حروفها لما أدمن رسائلها التي تحولت ومنذ ولادتها إلى مخرج يقصدناه كلما امتلكا لحظة تحرر من بيوت ينتميا إليها بعقد زواج.

كيف تغزو الحروف حياتنا وتستأثر بكل غنائمها؟ كيف تتسلل إلى يومياتنا برقتها وقوتها فتسجنها في قفص كبير اسمه التعلق؟

في مرحلة مبكرة من التعلق نجهل لم نفكر بالغائب، لم ننشد لحظة صمتٍ نستعيد فيها ملامحه، لمَ نمشي وراء آثار حضوره عسانا نلتقط شيئاً وقع منه بالصدفة، ولكن ما هي الصدفة في النهاية؟ ألا نضحك على أنفسنا حين نستعملها، حين نستبدلها بكلمة القدر، ألا نملك الشجاعة لنقول:إنه قدرنا؟ أم أن الصدفة أهون ألف مرة من الترقب والتوقع اللذين يرميهما القدر على مشاعرنا بالتعلق؟

فمساء الخير يا أحلى صدفي..

يخشاها بقدر ما يخشى نفسه، يتساءل لمَ تخربط الأوراق وتقلب الطاولة؟ كيف تخرج رأسها من وراء النص وتهزه أن تعالَ والقِ نظرة علي، أنا حقيقية حد الألم، وحقيقية حد الصدمة، وحقيقية حد التلاشي وراء الحروف المسكينة..

ليست الحروف من غزانا أيتها المرأة الخارجة من نص التمنيات، بل نهمنا إليها هو الذي قادها إلى قطبي الكون الذي يعيش فيه كل منا على خط استواء المستحيل، فلنمتلك ذرة شجاعة ونعترف أن لقاءنا لم يكن صدفة، بل قدر جميل يجمعنا كل يوم على شرفات القمر وأرجوحات الشمس ..

فصباح الخير يا أحلى أقداري..

حروفه كانت تتوجس من استحضار اسمها، هي ملكة النص التي لا ينافسها في حياكة الحروف أحد، فكيف له أن يسقطها من عرش الآلهة إلى مراتب النساء العاديات؟ كيف له وهو الراكع على عتبة معبدها كل ليلة أن ينطق باسم تحمله نساء غيرها في كون لا تنتمي إليه.

ذات يوم كتبت :

تأتيني حروفك فيضان أخشى أن يبللني، فيفتضح أمري وأمسك متلبسة بك..

إلى من كانت تلمح بتلك الكلمات؟

لم يكن من الممكن لامرأة مثلها ألا تكون متزوجة، ولكنه لن يسألها: سيسقطه السؤال من برج النص إلى فخ الغيرة وهذه لا تليق بآلهة الحروف التي عشق نصها أو عشقها هي.....لا يدري، وكم يخاف أن يدري.

أقوم كل ليلة بإغلاق الباب قبل أن أتسلل إليكِ..أخشى من تلك التنهيدة أن تصل مسامع الجدران، فأقع أسير تحقيق لا ينتهي.

أكتب شيفرة الدخول وأراك بانتظاري، متربعة على عرش الحروف وعرش البياض الذي لا يزينه إلا حضورك..

فمن أين خرجت أيتها المرأة التي لا جسد لها؟ أتكون الحروف رحم وجودك الأول؟

كانت تعرف أنه لا يجوز لها استحضار اسمه إلى مملكة الكلمات، إنه رجل العبور الذي عصى مساره، واستقر في كوكبها نصاً يتغلغل كل ليلة في مساماتها دون أن تقاوم أو تحاول حتى المقاومة..

إنه إله النص الذي تخشع أمامه، وهو يغنيها سطوراً يكسوها الهوى، ويبتلعها الخوف من السقوط في هاوية الآتي، ولكن أي آتي لزوجة وأم؟

نحن أرواح النص، نسبح في ملكوت الكلمة بلا جسد ولا أطراف، جسدنا الحروف وأطرافنا النقاط التي نزين بها نصنا فيصبح شقيق الليل وأنت تكتبني، وتوأم الشمس وأنا أقرأك.

كلاهما كان يخشى الولادة خارج رحم البياض حرصاً على الحياة داخل سور البياض الجميل، ولكنهما شئياً فشئياً راحا يتجاوزان سقف الكلمة و يتدليان من سحابها العابر حتى مرت شهور ثلاثة.

شهور ثلاثة يتنفسان من الكلمة كل ليلة، يتقدان من شوقهما الخجول إلى كلمات أخرى، فيمدان ممرات عبور لا تؤمن بالممنوع، الممنوع في نصوصهما محرض سري على فتح ستائر الغد، من أجل ماذا؟ لم يعرف أي منهما الجواب.

علاقته بزوجته استمرت كما هي، كانا يعكسان صورة مثالية لزوجين متحابين، هي رفيقة الرحلة التي اعتقدت أنها تعيش برها بأمان شديد، فسنوات البداية الصعبة انتهت في بيت صغير في باريس، والهوية التي لطالما كانت القضية تحولت إلى جواز سفر فرنسي يمنحهما اسماً وميلاداً تعويضيا، ولكن لهاث الرحالة ما زال عالياً في داخله، لم ينم ليلة دون أن يشعر بأن شيئاً ما في داخله يحثه على المضي، إلى أين لا يعرف؟ فالنهاية ليست في باريس، لا يمكن لها أن تكون في باريس، و مفتاح بيته الفلسطيني ما زال مرمياً في صندوق أمه الصغير.

ما هذا الصوت الذي يئن في دواخلنا؟

إلى أين يريدنا أن نذهب؟

لم لا يمنحنا القليل من الوقت لنرتاح من إلحاحه؟ أشعر أني أركض في دهليز مظلم طويل، لا مخرج فيه، لا باب خروج، فقط علي أن أركض حتى يهدني التعب، فلا أكاد أغفو حتى يوقظني الصوت كي أركض من جديد..

تقرأه على ضوء خافت. .تشعر به تعباً من قدره، وأشياء أخرى.

لا تلم الصوت أيها الرحالة، إنه مثلك يبحث عن وطن لينام فيه ويهدأ.. أتظنه مرتاح وهو يعبث في دواخلنا متخبطاً بين رفضنا وعجزنا عن التكيف معه؟ذلك الصوت أيها اللاهث يشبهنا، كلانا يبحث عن ضوء يمكننا من عبور دهليز العتمة، ولكن خوفي من أن نسقط على عتبة النور إن وصلنا آخر الدهليز، فنحن والضوء لا نتفق، كلقائنا الذي لا يقوى على فتح عينيه في عين الضوء، فتقبل العتمة أيها الرحالة، قد يصرعنا الضوء لو دخل دهاليزنا يوماً..

كان يخاف من مدها إلى أعماقه، تلك الغريبة التي لم تجلس معه سوى ثلاثين دقيقة، ومع ذلك سمعت أنين الصوت الذي لم يستوقف زوجته يوماً. .

أحياناً نغامر، ونواجه لعنة الضوء، لا تهمنا خسائرنا، الرغبة في القتل على منصته تغرينا، فنقترب محملين بجنون التوقع، لا خوف، لا تردد، المهم أن ألمسك وبعدها ليزفني العمر إلى العتمة من جديد؟

افتح لي إذاً أبوابك السرية، دعني أتلصص على ما تخفيه عن عين السماء، أعدك أني سأكتفي بالنظر وأرحل، لن أتعبك بالسؤال، ولن أزيد عليك تعب الحياة، أضئ القنديل، ودعني أتلصص، وأعدك أني سأكتفي بالنظر وأرحل..

لم يخيب رجاءها، ربما لأنه كان تواقاً ليضيء ذلك القنديل على أوراق قصيدته السرية التي لم يقرأها أحد، خربشات كتبها في سن العاشرة لأمه، ولم يزل يحفظها بين أوراقه الأولى حين كان ولداً بنصف وطن.

«اتركيني أغفو
لا تسدلي الستارة يا أمي
أحتاج إلى بعض النور
وإلى كثير من الحقيقة
عودي يا أمي
واحكي لي قصة
لم أسمعها منك
أريدك أن تروي لي
حكاية سندباد
أو الأميرة النائمة
أو حتى ليلى والذئب
المهم ألا أسمع
في الحكايا كلمة
دبابة
اتركيني أغفو اليوم
يا أمي كباقي
أطفال الأرض
على سرير
لا على حصير

بلا خوف

بلا مرارة

الاحتمالات

أتركيني أغفو

على ضوء

وطن

يدخل من نافذة

غرفتي الصغيرة

ولو لليلة واحدة

قبل أن تخبريني

في الصباح

أن المخيم

أصبح هو

الوطن

وأن السرير

والنافذة

والضوء

أصبحوا في تاريخنا

هم الحكاية

كان يشعر بالخوف منها وهي تتجه مسرعة إلى قلبه، إلى مخيلته، إلى كل خلية يحملها جسده، فما الذي سيحدث لو خرجت من نصها ولبست ثوب امرأة؟ كان يعرف أنه لن يتحمل حضورها،

متعبٌ منها حد الإنهاك، ظلها يلتقط أنفاسه، يلاحقه حتى في غرفة نومه، يتعربش على حنجرته معلقاً معه كل وعود دمشق الجالسة وراء باب الحكاية تنتظر دورها بولع.

كان مع زوجته حين نطق باسمها، ذلك الاسم الذي دخل عنوة ملاءات سريره، فطرح حروفه على جسد امرأة عجزت عن تحّميل اسمها في حنجرة طوال الخمسة عشر عاماً.

لم يدافع ولم تسأل، كانت النظرات مصرة على عدم التلاقي، بقيا متجمدين للحظات، أنفاسه التي راحت تتخبط على صدرها حاولت التأني كيلا يعيد اسم حبيبته ثانية، فتغلب بالكاد على الاسم و استأنف ما كان قد بدأه على عجل.

لم تعد امرأته السرية منذ تلك الليلة سرية، كيف لها أن تبقى سرا بعد أن خرجت مع زفيره ووصلت مسامع زوجته..

في تلك الليلة عرف خطورة مدها إلى حياته. لم يعد حضورها مشروطاً ولا مرهوناً بحالة أو لحظة، أصبحت تدخل عالمه بلا استئذان، بلا طرق باب ولا إعلان قدوم، تتسلل إلى حياته كما النور يشق طريقه عبر الستائر من دون أن يخشى سؤال أحد عن سر ذلك الاقتحام.

جر جسده من السرير ليلتها.. كان يتحاشى عيون زوجته التي لم تعلق بكلمة، خافت أن تدخل معه في سراديب بوح لن تخرج منها سالمة.

دخل غرفة المكتب وراح يتأمل الشارع ويتخيلها واقفة على ناصية الطريق تنتظر نزوله..

سأتوقف عن الكتابة إليها..

أخذ قراره بينما كانت تترقب قدومه على شرفة ليل دمشقي. كان يعرف أنه من الصعب الابتعاد عنها، إنها توأم حروفه التي عشقت حروفها قبل أن يتجرأ على التنهيد باسمها، ولكن الحروف لم تبق مجرد حروف، الصدفة ربحت الجولة الأولى، وراحت تتوعدهما بالباقي الأعظم.

* * *

أي صوت حزين هذا الذي يعتصره الحرف على بياض الانتظار؟ لمَ عليه أن يخافه إلى هذا الحد؟ ألم يحصن نفسه منها حين أصر على لبس الحروف فوق جلده؟ ولكن الحرف أمامه، يتمزق على البياض، يطول، يقصر، يعاتب الفراغ، يتلمس الأعذار، يّقبل طيف حرف محتمل من وجه محتمل، من قدر محتمل ضل وتعثر فجأة في كونه البعيد.

يهزمه السؤال، يرديه قتيلاً أمام امرأة رآها مرة: كيف للحرف أن يقتل صاحبه؟ فيكون هو الأصل، هو الحقيقة، هو الصورة، هو الزمن المصر على اللحاق به، هو الملامح وهو في النهاية بيت القصيد؟

يفيق من نومه الرابعة صباحاً: ما الذي تفعله بي تلك المرأة، يقولها ويغادر سريره، فيراها أمامه، يفتح عينيه ليخرج من حلمه، فيكتشف أنها لا تسكن الحلم فحسب،بل . . . .

يتجه إلى شرفة بيته يريد بعض الهواء ليتخلص من اختناقه. برودة الليل لم تلسعه كما تلسعه ابتسامتها. تلك المرأة التي لم يسمع صوتها إلا مرة، ولم ير وجهها إلا مرة، ولم يلمس يدها إلا

مرة، كيف تراها اختصرت المسافة الطويلة بين دمشق وباريس وجاءته بهذه القوة لتغلبه رغم البعاد.

كيف عرفت الطريق إلى بيته؟ إلى غرفة نومه؟ إلى خياله الذي زرعته بياسمين مدينتها فأثمر أمنية محكومة بالموت على سرير احتضار السطور؟

مر الليل، وتلاه الفجر، دون أن يحّملهما رسالة صبح ، «لن يكتب ثانية» عاد إلى سريره ليغفو على وسادة لم تعد ملكه منذ أن خرجا من شرنقة الصدفة ليبتلعهما غول الواقع.

* * *

لم يأتها النهار كما اعتاد منذ أول وأخر لقاء، كانت تتلصص على بريدها الالكتروني طوال اليوم، فلا تجد لكلماته أثراً، تترك مكتبها، تقود سيارتها عائدة إلى البيت المسكون بشبح الصمت. تسارع إلى الاطمئنان عليه، فلا تجده، تغير ملابسها، وتعاود التلصص، فلا تحصل على كلمة تخبرها أنه يذكرها.

تدخل في عتمة الليل، وكلها يبحث عن حرف منه، فلا تتلقى كلمة يقول فيها: أنا هناك، أتذكرك يا امرأة الياسمين.

ماذا يهمني لو غاب؟ تسأل نفسها وهي تداعب ابنتيها قبل النوم، ما هذا الذي يجعلني أتوه عن نفسي بحثاً عنه ذلك الرجل، عن ذلك الاحتمال؟ أأشتاق إليه أم إلى حروفه؟

تغادر سريرها عند الخامسة صباحاً، تريد أن تطمئن إلى عودته إليها سالماً، تفتح الكومبيوتر بخوف، تدخل بريدها الالكتروني،

ترى بياض الانتظار يئن مثلها، تكتب له على عجل ، وتعاود ممارسة الانتظار بشهية الوجع.

لن أظلمها كما تظلمها، حروفنا لا تستحق الجلد في زنزانة انفرادية، فغب ما شئت،الآلهة لا تعاتب ..

قاوم نصها وضعفه، قرأها بسرعة لهاثها ومضى في رحلة مع أسرته خارج باريس. كان يريد أن يضخ في غيابها الدم من جديد في حياة أسرة صمم على منحها ما فقده، قصد المانش بحثاً عما يمكنه من استعادة ثباته.

أسمع صوت الغياب كل يوم يصلي، أن عدْ يا رجل الحروف إلى معبدنا، كهفنا السري الذي لا يعترف بعدك بأشيائي القديمة، يربك الآن بقرار سماوي يطرزه الرب الذي حاك صدفتنا، فوحدها حروفك التي تضيء ظلمة الغياب، وحدك من عليه العودة إلى أحضان الصبح ليستعيد فنجان قهوتي، طعم النور ولتستعيد صباحاتي إشراقة كونك المستحيل.

يقترب من الصمت ليغسل خياله من ظلها، فيستحضرها أكثر. عرف في المانش فقط أن الصمت هو بيئة التفكير الخصبة التي تنبت فيها أغلب مآسينا، فحين نصمت نبحر في ذواتنا على مركب لا شراع له إلا شراع الخيال الذي لا يعرف ضوابط ولا لجاما.

لم تمر ليلة إلا وتذكرها، يعرف أنها تنتظر عودته بين الحين والحين، لكنه كان يمتحن قدرته على مقاومة كلماتها، الكلمات أخذتهما بعيداً، حلقت بهما فوق السحاب، صنعت منهما مخلوقات من حروف، وهيهات بين الحرف والحقيقة.

كان يطل من عتمة الليل، يفتح الستارة، يسترق النظر إلى

جوف السماء، يتنفس بعضاً من حلم لا اسم له ولا لون. يراها غافية في سرير بعيد، أتراها تشاركه مع أحد؟ يهز رأسه للمرة العاشرة ويعود إلى نفسه.

يتمزق الشوق من شوقه، ينتحر الانتظار على عتبة أمل عناق تدخله حروفنا بعد كل هذا البعاد.تصرخ الصباحات:أين هو؟هل ملّ شهرزاد الكلام و راح يبحث عن شهرزاد أخرى؟لهاث الليل وصل مسامع الصبح، فتعالى إلى حضن قاموسنا ، ما زال منجم الكلمات ينتظر منا استخراج ما تبقى من تفاصيل الحكاية.

كم كان يلوم خياله الذي جرفه رغماً عنه إلى هاوية العشق. يسأله لم لا تتركني وشأني؟ لم التقطت صورها وهي على تلك المسافة من البعد و المستحيل.

تكرهه الكلمات، و تحبه هي، تعاتبه الحروف، وتصفح هي عن كل غياب و نسيان.

يسألها الانتظار: كيف تغفرين له هجرك؟ فتخفض رأسهاخجلاً،بمَ تجيب والكل بات شاهداً على إشعاله الحكاية ومراقبة الحريق من قريب؟ بم تجيب وحبهما المتواري وراء النص لم يعد يسمع أغنية الصباح؟ أتراه خاف من أنات العشق تنزفها ليالي الغياب على موائد الذكريات!

لأول مرة أعرف أن الغياب يولد مئة حضور، يسحب الغائب من مكانه، من سريره، من أريكته، مّن مكتبه، من فنجان قهوته، من حروفه التي لم تُقل بعد.

لأول مرة أعرف أن الغياب يحضركَ بأمر الخيال والمشغول بك ليل نهار. فدوران الأرض يتعطل حين نبحث عن الغائب، يتثاءب شرق الكون وغربه على عتبة انتظاره، فيترك ما للكون للكون، و يختصر ما لنا بنا..

لأول مرة أعرف أن الشهيق يلملم رائحة من نحبه نخيرة بقاء، فيماطل موعد الزفير كيلا نفقد طاقة الحياة، فالعشق لا يحتاج إلى تسعة أشهر في رحم الاعتراف، ولا إلى ساعات طلق، إنه كالضوء، كالصوت، كالبوق يعلن القيامة من دون مقدمات، من دون توصيات، من دون أن يقبل من العقل وصاية أو محاكمة..

كان يحتار في سر تلك الرسائل، لم أخذت كل هذا البعد وهو الذي لم يرد منها إلا اللهو وشيء آخر لا يعرفه؟ كيف لم يتدارك مشاعره وهو يقتحم عالمها كل يوم برسالة يخاطب فيها ياسمين دمشق، وهو في حقيقة الأمر يخاطبها هي، يتقرب منها هي، يتغزل بها هي.

دمشق تناجي القدس أن قومي من غيابك، فملامح الغياب لا تليق بمدينة لا تعرف أن تختفي من خريطة الكون..

تلصصه على بريده الالكتروني كان يفضحه أمام نفسه: ممن تهرب أيها الرحالة، قد علقت بمدينتها كما تقول النبوءة، فارفع راية الهزيمة، لن تقوى على الهروب أكثر.

لا يعاتبك البياض السري إلا لأنه يريدك وفياً لعشق الكلمة، بياضنا كان يشم رائحتك الصبح يتنفس رحيق حروفنا القديمة من ضفة الكون الأخرى، فلا تبرر غيابك، غيابك أبقاك نابضاً في قلب السطور لأنها وحدها من آمن بأنك لن تهجرها..

عاد إلى باريس مسكوناً بها أكثر، لم تثمر العطلة ولم ترحمه من سطوتها، دخل بيته بحثاً عن رقم هاتفها، لن يعّذبها بعد اليوم، لن يجلد شغفه بحجج لم تعد مقنعة، سيتصل بها، سيقلب هو الآن الطاولة، سيخربط الأوراق، وليكن ما يشاء الهوى.

الفصل السادس

سامحيني

سامحيني

سامحيني

يتلوها مرة ومرتين، وثلاثة، يدونها على مسامع الكون حتى يتوسط له معها، لا تنطق بكلمة، تسمعه وتبكي، أو تبكي وتسمعه، هو العائد إلى محراب الكلمة يطلب الصفح، كيف لا يعرف ذلك المعشوق أنه لا يحتاج إلى صفح ليعود.

لا أملك حجة غياب، كنت أتجنبك، أهرب للبعيد، أرمم مقاومتي لأهزم شامك، ولكني عدت أعزل إلا منك ، فهلا فتحت لي مدينتك بواباتها من جديد..

كفاكَ تبريراً، مثلكَ لا يبرر، مثلكَ يسدل الستارة عن انتظاري ويعاود لعب دور البطولة، فالمسرح كله لكْ، والضوء كله عليك، والجمهور ترك مقاعده لي وحدي، فهيا، عانقني على مرأى الشام من دون أعذار.

تكلمي، دعيني أسمع صوتكِ، اتركيه يملأني ببحة اللقاء الأول.. لن أتركه بعد اليوم يعانق صداه، أقسمُ له، أقسمُ لكِ

كم اشتقت إليكْ..

يسكتان عن الكلام، ويبقى اللهاث ناطقاً... يأخذ نفساً عميقاً، يسترد قواه ويتابع:

عجزت حروفكِ عن تغيير مسارها طوال فترة الغياب، كنت تشاركين الضوء والعتمة، حتى الحلم، تمكنت منه، عرفت أين مفتاحه ودخلت..

يتردد قليلاً قبل أن يكمل: ولكني كنت بحاجة إلى أن أعيش دونك..

وكيف أمضيتَ فترة غيابنا؟

كنت أجربُ طعم العيش دونك،

وهل تحملته؟

آه

كبيرةٌ آهتكَ، لا تحاول بعد اليوم إذاً، أبطال الحكاية تمردوا على السيناريو، فلا تُخضع الحرف للتجربة.

أعلنَ الهروب توبته، لن يحمل بعد الآن أصفاد غيابكِ، فلا تسأليني البقاء.

يعاود اللهاث ارتداء الصوت، يمهلهما لحظات لاستجماع الحروف المبعثرة ويقف متفرجاً في حناجر تواقة للبوح:

تعال نخلع عنا أثواب الحروف، تعال نتكلم عن حقائق مختبئة وراء ستار.

عندي ولد وبنت.

وعندي ابنتان.

وزوجة تأخذين مكانها من كل الأمكنة.

وزوجٌ باع الياسمين، وحلمي.

قولي لياسمين الشام، أنه كللّ قلبي حين صافحتك لأول مرة.

دموعها لا تبحث عن طريق وهي تسمعه، تُغرقها به، تأتي بكل الصور الممكنة، وغير الممكنة، وتعجز عن الوقوف على الحياد، فصوته شدها إلى حيث يطلق الزفير:

وأنت، متى ستعانق القدس بالنيابة عني؟

عناقنا مؤجل منذ خمسة عشر عاماً..

كيف سمحتِ للغربة بأن تقطع حبل سرتك بها؟

الغربة يا آلهة الكلمات الجميلة تعيد حبل سرتنا إلى مدننا الأولى، ولكني أكره أن أدخلها بجواز سفري الفرنسي.

وهل تعتبر دخولكِ بهذا الجواز خيانة لفلسطينيتك؟

يتساءل كيف عرفت هذا الذي كان على وشك قوله:

أين قرأتِ لي هذه الجملة؟

أتصدق أني لم أقرأ لك إلا في أيام غيابك الثمانية؟ كنت ألملم منك ما استطيع..

و بماذا خرجت؟

بحقيبة تبحث عن وطن.

يترك كرسيه في غرفة مكتبه ويتوجه إلى نافذة صغيرة، يفتحها، يريد بعض الهواء، كثيرة هي حين تحضر، وموجعة حين تغيب.

وهل توقعت عودتي؟

كنت أخشى تأخيرها؟

يـا الله، كيف وصلتا إلى هنا؟

إنها لعنة الحروف أيها الرحالة..

وأنا مستعد لها، حتى النهاية

حتى النهاية

أقسم بدمشق والقدس .

وأنا أصدقك.

عدتُ إليك أيتـها الـحروف الرقيقة في مـلامتـها، كنتِ ترقبيننـا بخـجل وحيرة، تتـأملين عودتنا إلى محـرابك لنعلن أننا لك..آتيك بوعد يكبر ككون متسـع كل صبـاح، يكشـف عن غور جديد فـي أعماقه، يبيّض أكثر كغيم يرسم على وجه السماء ملامح اللقاء.

فها أنا مـخفورٌ بأصفاد الوعد، أركع أمام محراب روعتك، ونبلك، رافعاً راية الـهزيمة بفرح، وقابلاً لكل خسـارتـي على أن يبقـى الـحرف بيننا على قيد الـحياة..

* * *

لم يكن بإمكان أيا منهما تجاهل الصوت بعد أن قلب الصفحة وغيّر رغماً عن الحرف مسار الحكاية: لقد وقعا في الحب بكل بساطة الكلمة، وقسوتها وقعا في الحب، لم يهزمهما المنطق، ولم يردعهما العقل، سلما للحب هكذا، بضعفٍ، بعجزٍ، بتوقٍ، بمرارةٍ، بشغفٍ، بحزنٍ، بفرحٍ، بلا محاكمات، ولا إدانات.

كانت تعيش موزعة بين امرأتين، الرجل الذي يشاركها السرير ولا يشاركها الحلم، ومن يشاركها الحلم لا يعرف إلى سريرها طريق.

كم تخذلنا نواميس الحقيقة حين نعجز عن الاستجابة.. حين نحتفي بغرقنا، بعجزنا، بدوامة الهوى المشرف على كسرنا... بشتاءات من الدموع المحملة بفصول حزن لاحقة، بموسيقى القلب ترددها اسطوانات أقدار تعرف مسار الحكايات وآخرها..

أنؤجل البوح، أنعلقه على أسقف تواريخ لا نريدها أن تأتي، أم نقولها، ونحول الشرارة إلى حريق؟

أيامه السَّكْرى بها تمر ببطء، تترنح بين يقظة ونوم. زوجته التي لا يملك أمامها عذراً تعجز عن الدنو، لمس دواخله بات أمراً محالاً كالاقتراب من شفتيه، استحالات تلحق استحالات، وكلّ منهما يجْهز على نفسه من شدة التوق.

فرق التوقيت بين دمشق وباريس كان يضعه على مقربة من ساعة المنبه، ينتظر الوقت ليحاكيها، فيأتيه صوتها اللاهث ينتظر حرفاً ليقول أي شيء، المهم أن يحكي حتى تتأكد من كونه حقيقة، ومع ذلك ترك الصوت للحرف مساحة للتنفس. ما زال له ذلك الطعم وتلك النكهة التي كانت طعم اللقاء الأول، تكتبه ويكتبها كل يوم على ضوء المنفذ الصغير الذي توجده حكايات الحب جنباً بجنب الفاجعة.

كان القدر يترك لهما بعض الضوء ليصدقا بأن الحب أقوى من المستحيل، كان يقف و يتفرج عليهما وهما يمارسان آلامهما على مرأى نظره، ومع ذلك، يلوذ بالصمت، تاركاً للغد فرصة التفرج على ما يخفيه وراء ستائر الحكاية.

* * *

أحبكِ..

يكتبها من دون مقدمات، ينظر في ظلمة الليل، يتأمل أثاث غرفة مكتبه، ويتابع النزيف على شاشة الكومبيوتر، الحرف يرتجف، والقلب يتلعثم وسط ليل يمزق جسده بين باريس ودمشق.

أنفاسها التي تتأوه في زحمة الحروف، تعاود ارتياد الطريق نفسها، فتمتطي تأوهات الحب حين يأتي في أسوأ توقيت، ومع ذلك يتابع البوح، يلبي نداء الحريق، يستعير بعضاً من جرأته، ألم تخبره يوماً أن النار لا تخاف؟

العاشق يعلن أمام رب العشق عشقه، يقر ويعترف بأنبل ذنوبه، ويعاهد ربه على الانغماس في لذة الذنب التعبدية، ففيها انصهار بالإله، وفيها ينبوع الخلاص.

حين كتبتَ «أحبكِ» على بصيص الفجر عرفت أنه لم يعد لي مخرجاً منك، قيدتني لحظتها في نفوسكَ، سجلتني باسمكَ، وعلقتني على حبال صوتك التي سلمت الحروف قرار الاعتراف ..أكان قدرنا حبيبي أن نختار الحرف منذ البداية مشنقة نعلق عليها مصير الحكاية؟

قبل التورط في لعبة الحروف كانت تستسلم إلى زوجها على مرآى الضوء. لم يطفئ نزار الضوء مرة وهو يمارس الجنس معها، كان يحب تأمل الجسد المطروح تحت شهواته، لماذا؟ لم تسأله، كانت تترك الضوء و تغمض عينيها حتى لا تراه يستنشق من وجهها ما تبقى من رائحة ياسمين دمشق، ولكن الضوء انطفأ بعد أن رسا رحالها في مينائها، لم يعد من الممكن أن تترك الضوء يفضح ما في وجهها، كانت تستحضره تحت ذيول العتمة، تتخيل كيف بإمكان القبلة أن تذوبها حين تقرر الحكاية موعد اللقاء الثاني.

الفصل السابع

عام مر على المصافحة الأولى، كان يغرف من حبها لشامها حباً لقدسه، يتعلم من ذلك الهوس للمدن نوعاً جديداً من الحب لم يألفه وهو المسموح له دخول مدن العالم إلا مدينته. القدس مدينةٌ لدمشق باستعادته: هو الذي قرر ذات ليلة حنين زيارة القدس ومعه رماد أمه ورماد أوجاع أخرى..

لم يصبر على الصبح ليخبرها بأنه عائد إلى مدينته. كان يريد أن يزف لها خبر سفره إلى القدس،الكلمة كانت تناغش شفتيه لتسقط على مسامعها كالغيث.

كانت في بيتها، ومع زوجها حين أتاها صوته، لم تتمكن من تجاهل مكالمته وتأجيل الرد عليها.رنة هاتفها الخليوي كانت تلح، و حماسه كان يسبقه. مسكت الهاتف وخرجت من غرفة الجلوس لتسمع فرحه قبل الكلمات:

أنا مثلك أيتها الحبيبة، لي قدسٌ ومهدٌ ووطن.

لم تكترث لما قد يحدث لو سمعها زوجها..

يتابع وهو يلهث من الفرح:

سأسافر غداً إلى القدس، فهل تريدين هدية من هناك؟..

أريد كمشة من تراب القدس لأزرع فيه ياسمينة من دمشق.

سأكتب لك من مدينتي، لأول مرة سأحبك من هناك.

تنتهي المكالمة، ويبدأ العشق ينزف من عينيها دمعاً تحوطه ملائكة السماء حتى لا يراه أحد.

* * *

يسافر إلى القدس بجواز سفره الفرنسي، مفتاحها لم يعد نفسه، ولكنها ما زالت كما هي، يلتفت باحثاً عن أمه وهو يقطع الحدود ويدخل القدس، فيراها، هي ذي، تشرب قهوتها وتسقي زراعاتها الخضراء في تلك العلب المعدنية المرصوفة في أرض الشرفة.

صوت جارتها يصبح عليها، فترد الصباح بصباح أحلى، كم كان عليها أن تبكي تلك النهارات الجميلة الوادعة على سماء وطن وهي مسجونة بين جدران بيت صغير بعيد عن الشمس، في مخيم في عمان.

ها هي مرة ثانية، تنشر الغسيل على حبل في شرفتها، غسيل أبيض كبياض بشرتها، تردد أغنيتها المفضلة، فتقف العصافير على حافة الشرفة منصتة لهذا الصوت الذي ما زال يعانق القدس رغم موتها منذ عشرين عاماً.

وسط تلك المشاعر التي ضختها القدس مرة واحدة في قلبه، لم يتحمل ألا يسمع صوت حبيبته، رائحة القدس كانت تغريه ليشم رائحة دمشق، اتصل بها متلهفاً:

هل تسمحين لي أن أحبك من فلسطين؟

ما أحلى الصبح في وطنكَ، صوت يخرج من تراب الأرض، من عمق التاريخ وعمق الحقيقة، من عمق قلبك الذي أحبني أرضاً مسورة

يمتلكها رغم السور، يعشقها رغم الحدود والحواجز ومع ذلك يشعر بأعماقه أنها له، ملكه ولو كانت في يد غيره.

صباحك اليوم معطر برائحة القدس التي أنجبتك ، التاريخ دلها منذ الأزل أن دمشق توأم عشقها، وتوأم حكاية ستفرد صفحاتها في بلاد الشام، فعش صباحات وطنك وخذ نفساً طويلاً وعميقاً منه، إنه اليوم يحتضنك أيها الرحال، فلتكف عن القول بأنك بلا وطن، إنه اليوم يخبرك بأنه لك، لك أيها البعيد، كما أنا لك أيها المستحيل، فعش بنعمة العشق الصوفي الذي لا ينتظر منك مقابلا ولا برهان ولاء. وطنك مثلي لا يريد منك إلا قلبك. أشعر به الآن يستمتع بخطواتك وهي توقع على ترابه لقاء العائدين ولو طال الترحال، فلا تبخل عليه بك، امنحه حبك حتى يكون لغيابك في ذاكرته شفيع، شاركه النفس والعشق والوله. وطنك مثلي لا يحمل مفتاح بيتك ولا يواسي نفسه بأنك عائد إلى سريره بعد نهار طويل، فعش أيام عودتك إليه بكل لحظة تتنفسها من هوائه، وحدها أنا من تعرف معنى أن ينام المعشوق في غير سريرها».

يتأمل نهار الوطن من نافذة في بيت ابن عمه ويبكي فلسطين التي تركها لهم، وحبيبته التي يتركها له بدموع ملؤها العجز عن إنقاذ الوطن وإنقاذها.

أيامه في فلسطين دونت في تاريخ تلك المدينة الحزينة قصيدة عودة لم يسمعها إلا من بقي هناك. قلة من المصرين على الدفن في مهد الولادة الأولى. كان يكتشف الأماكن القديمة التي حدثته أمه عنها. يتلمس ما بقي من رائحة تلك المرأة التي لم تنس صباح فلسطين في كل صباحاتها التي تلت يوم النزوح. مشت معه أمه

خطوة خطوة، كانت تدله على الطرقات، والحارات، والدكاكين. يده في يدها، وصوتها يملأ شوارع القدس الضيقة. ألم أخبرك كم جميلة هي قدسنا؟ أنظر إليها، ألا تساوي كل المدن التي منحتنا قليل من الأوراق، وبعض السقوف، وكثيراً من المهدئات لننسى أن لنا الأقصى وبيت لحم وحيفا ويافا وغزة والخليل و الناصرة ونابلس وطول كرم وطبريا وصفد و والمجدل و جنين وأريحا ورام الله والرملة واللد وعكا وبئر السبع والناصرة واللد.

صوتها عاد شاباً وهي تّعرف ابنها على مدينته، يتذكر شام حبيبته ويتنهد، فترن التنهيدة مع صوت الكنائس لتلتفت فلسطين بأسرها باتجاه الصوت.

كان واقعاً تحت تأثير المدينة وأهلها، أبناء حارته الذين تجمعوا حوله، دفعوه لاحقاً إلى البكاء كما لم يبك من قبل.

أخبره أحد الشبان الجامعيين، أنه كلما ظهر في التلفزيون صرخت جدته وقالت: تعالوا أنظروا إلى ابن القدس، ابن حارتكم، وابن جارتي التي كانت تشاركني صباحات القدس المطعمة بنعناع حديقتي.

لم يرفض دعوة أحد، دخل البيوت كلها، أكل هنا، شرب الشاي هناك، ضحك هنا وبكى هناك، وفي كل المرات، كانت يد أمه تشد على كتفه: أرأيت كم أناسنا أوفياء للحقيقة.

كان يشعر بها معه، وراءه، ذيل عباءتها يلملم وقع خطواته ليوم سيطول فيه انتظاره.

* * *

في الشام، كانت حبيبته تفتح نافذة من بيتها كل صباح، ترقبه وهو يتجول مع أبناء حارته كما لو أنه لم يترك القدس يوماً، كانت تعرف أن الوطن لا يغضب من أبنائه، وتعرف أكثر أنها باتت الآن تحبه أكثر، وهو يلحق بطيف أمه ويلبي النداء.

كانت الأيام الأربعة التي قضاها هناك كافية ليعرف لأي الأوطان ينتمي ولأي الأقدار يسير. اضطر وهو يحزم أغراض العودة أن يشتري حقيبة أكبر، فحقيبة واحدة لا تكفينا حين نزور أوطاننا، دخل القدس بذاكرة شبه فارغة، وخرج منها محملاً بحزن وفرح أكبر بكثير من سعة حقيبة.

لم يترك دكاناً في القدس إلا واشترى منه تذكار عودة. كان يريد أن يقدم للجميع شيئاً من فلسطين، أراد أن يقدم دليلاً يثبت فيه أن وطنه حي لم يمت.

ولكن ماذا يقدم لحبيبته؟ كان يعرف أنها تنتظر منه تذكاراً يحمل رائحة القدس وكان يعرف أكثر أنه ما من تذكار يختصر القدس.

«لآخر العمر» أية نبوءة هذه التي أقدم على شرائها ممثلة في قلادة، أكان يعرف أن تلك الكلمتين هما التعويذة التي ستضعها في عقنها: قلادة عشق لن تتحرر منها ما عاشت.

القدر هو من قاده إلى ذلك المحل الخاص ببيع الفضيات، والعشق هو من أخذ عينيه ورمى بهما على تلك الكلمتين:

من فضلك،أريد هذه القلادة..

ابتسامة صاحبة المحل سبقت تعليقها، لم تكن لتجهل من يكون، ولم يكن من الصعب أن تجهل أنه على وشك تطويق امرأة بهاتين الكلمتين.

سألته وهي تضعها في علبة مخملية: ألا تريد قلادة ثانية لزوجتك؟

لم يداري ضحكته، ولم يفتعل غباءً ليس من طبعه، هز رأسه بالموافقة من دونما أن يعلق بكلمة خاصة.

«ستسعد حبيبتك بهذه القلادة المقدسية».

باغته الكلام، وأسعده أن تكون علامات الحب مخيمة على ملامح وجهه. كان يعرف أن العشق لا يحتاج إلى اعتراف «لونه أصفر مثل الشمع وعينه ملآى بالدموع، وبدنه دائماً في احتراق». كان يحمل في جبينه وشم حبها، إنه ذلك العاشق الذي يشعر بهيجان في القلب عند ذكر المحبوب كما تقول الصوفية، فلمَ يستغرب حنكة تلك الصبية؟ ألا يفيض بحبه عند مفارق العيون وإشارات الاستفهام.

* * *

في ليلة القدس الأخيرة جلست أمه بالقرب من سريره تداعب شعره بيدها التي نبشت في ذاكرته كل عذابات التهجير.

أتريد أن أحكيَ لك حكاية قبل النوم.

فاجأه سؤالها، هز رأسه وبقي مبتسماً، مستسلماً ليدها وهي تحكي له حكاية السندباد لأول مرة، لم يكن مصدقاً ما يحدث، ها هو أخيراً يسمع حكاية السندباد من فم أمه. يغمض عينيه على صوتها وفلسطين من حوله وطناً يطفئ أضواءه بلا خوف و لا ترقب.

فلسطين في تلك الليلة كانت مرجاً أخضر تزف له حبيبته

عروساً في العتمة على ضوء وطن لا يعرف غير الفرح عنواناً لتاريخ شعب.

لأول مرة منذ أربعين عاماً ينام من دون قلق أو كوابيس كانت تلاحقه منذ دفن أمه. كانت تخبرهم «إذا كان نقل جثماني إلى القدس صعباً احرقوني وضعوا الرماد في قارورة ليسهل عليكم أخذي إلى هناك».

لم يتحقق حلم الدفن في فلسطين، كما لم يتحقق حلم العودة، خذل هو والعالم وعداً قطعه على نفسه ذات ليلة من ليالي مرضها، فمات الحلم مع آخر أنفاسها من دون أن تنهي بعد حكاياتها عن القدس.

وعند الصبح لملم عشقه من على أغصان الشجر ودموع النسوة الواقفات في الحارة القديمة يرقبن رحيله.. لم ينطق بكلمة وهو يستمع لصلواتهن كي يعود مرة ثانية إلى القدس. وضع حقيبته في سيارة التاكسي من دون أن يودع أحدا. كانت عجلات السيارة تدوس على قلبه، وصوت الناس يعلو فارشاً على سماء القدس كلمتين اثنتين: «الله معك». استدار والسيارة تصل إلى منعطف الحارة الأخير، فوجد أمه تقف عند زاوية بعيدة بفستان أسود دون أن تلوح له كما يفعل الجميع.

لماذا يا أمّا لا تلوحين لي؟

لمن تتركونها؟

لم ينطق بكلمة دفاع واحدة. أدار وجهه خجلاً وألماً ويقيناً بأنه لن يتمكن من أن يعيد بيديه بهاء القدس.

يغمض عينيه ويبكي وطناً وأماً وحبيبة لن يكونوا له أبداً.

هل قبلتها قبلة أخيرة، هل عانقتها قبل أن تفتح باب الرحيل وتمضي تاركاً جسدها المحموم حباً في سرير غريب يرسم عليها خريطة جديدة يريد بها تغيير معالم الحقيقة، وحروف التاريخ؟

هل التفتِ إليها من وراء الحواجز لتخبرها بأنك ستعود يوماً لتنتشلها من حضن يكسوه الشوك و الخوف: هل طمأنتها أنك ستعود ذات صباح لتسترده وطناً؟

لا تنساها وأنت تقطع الحدود، وأنت تشم جسداً غير جسدها، وأنت تنام في سرير بعيد عن صدرها، وأنت تشرب من كأس لا يحمل ماءها، لا تنس اسمها وأنت تلفظ اسم أخرى، حبيبتك تصلي في سرها أن تكون كل الأسماء وكل الأوطان، فلا تتركها تنتحب حبيبتك سجينة وأنت من معه مفتاح خلاصها، فأنذر نفسك لإنقاذها، حبيبتك تستحق منك حباً أكثر، فارحم كبرياءها وعد إليها مُحرراً ومنقذاً، حبيبتك لن تنام الليلة، ستلملم أشياءك التي نسيتها في غرفة نومها، فرشاة أسنانك، بيجامتك، منشفتك، كل ما نسيته سيتحول الليلة إلى قربان عشق ستحفظه لك لحين تعود، فلا تتأخر عليها، فلسطين وأنا ننتظرك...

الفصل الثامن

تغيرت الحياة بعد دخوله القدس، لم يكن من السهل أن يعيش في معزل عنها بعد رؤية أمه التي عادت تعيش معه من جديد، تلتقط منه النفس، فتشده كيلا يسقط ميتاً بلا هوية.

عرف بعد العودة إلى القدس سر عشق حبيبته لدمشق، كيف للوطن ألا يكون حاضراً؟ كيف له ألا يعيش على أغصان الصبح تتمايل بين ضفتي الآه فتخرج من شفاه ذاقت شفاهه؟معها حق تلك الحبيبة حين حولت ياسمين شامها إلى قضية حياة.

كيف لم يعذرونها وهي تحتضر على ياسمين ظنوا أن بياضه يليق بالأكفان لا بالأوطان؟كيف عزلوا ياسمين شامهم عن دور البطولة في حكاية مدينة اسمها دمشق؟

لم يمر يومان على عودته من القدس حتى حزم حقيبة الشوق وطار إليها. لهفته إلى رؤيتها كانت تتساوى مع لهفته إلى شامها. مدن تريد أن تتلاقى رغم حدود المحال وحواجز المنع.

دخل دمشق، فاصطحبه هودج العشق من المطار إلى الفندق. قلبه يستعجله لملاقاتها، لشمها، لرؤية تضاريس يديها، تلك التي كتبته حبيباً ومهزوماً أمام نبوءة أول لقاء.

أتاها مجتازاً حدود اللامعقول وفي يده كتاب عشق خطَ من على بُعد الرغبة تاريخ اللقاء، و بدل لرعشات الجسد مهمة كتابة التفاصيل، فكان محمود درويش أشبين القبلة الأولى وراعيها الرسمي في مراسيم اللقاء كما أراد حين أصدر ديوانه.

كنت أعرف أنك ستأتي، ستحط بحقيبة الشوق على باب مدينتي وتأتي، ستترك المنطق الذي لا نؤمن به وتأتي، ستلبس رائحة حبي عامداً متعمداً دون خوف من افتقادها...وتأتي..

لم يرتبا تفاصيل اللقاء. تجنبا السقوط في متاهة الكلمات العادية. لم تقبل حروف البدايات أن يُذبل الصوت تنهيدة الشوق الساكنة زوارق مدن تأبى أن تعوم على سطح التاريخ، اختصر قدومه بكلمة واحدة كانت كفيلة بترتيب الموعد من لحظته الأولى إلى آخر دمعة وداع.

لم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً آخراً غير انتظاره. لهفتها التي كادت أن تشِي بها لكل دمشق لم تبقِها في البيت أمام عيني نزار. شربت قهوتها مع أولى خيوط الصبح وخرجت لانتظاره وصوت الياسمين يغني عودة القدس إلى حضن معشوقتها.

في الحب تأتينا الأعذار جاهزة في قوالب مسبقة الصنع، لا نبحث عن عذر ونحن نطلي الحقيقة بألوان الوهم، نتنكر في اللحظة مئة لحظة، نلحق السراب رغم إيماننا باستحالة التقاطه، نتلذذ بوجعنا، بحزننا الخارج من عمق الحقيقة المصرة على إضاءة الوهم في تفاصيل ما نقوم به.

ساعات وتتحد سماوات الكون، تنشق غيوم العشق لتمطر جنوناً على أرض سيهبط عليها رجل من كوكب العشق البعيد، فهل حَضرت

حقائب القدوم إلي؟ أحزمت حبك وولعك وشهوتك؟ أفتحت خزانة قلبك وأخرجت كل الحب الذي يفيض هناك لأغرق به يوم اللقاء، ليلة اللقاء، لن انتظر الصباح حتى أقبلك، لن آوي إلى فراشي تاركة ليلة أو شبه ليلة، أو ساعات من ليلة أو حتى دقائق من ليلة دون أن أفترش ولهك أيها المعبود.. فلا تنس شيئاً هنا وشيئاً هناك، لا تنس أصبعاً أو شعرة من رأسك على وسادتك، أريدك كلك يوم اللقاء، أريدك بتفاصيلك وأنفاسك وشعرك وأصابعك ومساماتك وأقلامك ومفاتيحك وقمصانك وملابسك،أريدك لي بكل ما تملكه ، فلا تنس تفصيلاً صغيراً هناك، تعال إلي واحضر كلك معك حتى أعيش حلم المستحيل بيوم عاجل، سأنسى أنك لست لي، سأنسى أنك ستتركني مع رائحتك وترحل، سأنسى أنك ستعود إلى حضن آخر، سأنسى أن اللقاء بيننا سيحتاج دائماً إلى جواز سفر وبطاقات طائرة وساعات طويلة من الطيران و ليالٍ طويلة من الوجع..

طائرته التي حطت على مقربة من شهوتها كانت تعرف أنها تنقل عاشقاً من مدينة إلى مدينة، من حضن الحروف إلى حضن امرأة تمردت على الحروف، وأرادت لمسه ولمس يقين وجوده.

كانت تستعد للقائه، ذاك العابر الذي تحول إلى حكاية امتهنت مماطلة النهاية.

لم تكن أسواق دمشق لتلبي طلبها بفستان يليق باستقبال شهوته، ولم يكن من الممكن أن تختار فستاناً من خزانتها. كانت تريد قماشاً جديداً لم يشم رائحة قبل رائحته، ولم يستبح بعيون غير عينيه، ذلك الرسول الجميل الذي جاء ومعه كتاب العشق هدية من رب الحب الساكن مسامات الانتظار.

تعمدت ألا يكون الفستان قصيراً أو مكشوفاً، خجلت من جر عينيه إلى جسد كان يرتجف وهو يسمع مجرد صوته من بعيد.، لم تشأ إسقاط ضعفه في عينيه وهي التي تعرف كم يتعب الجسد في انتظار أنفاس من يحب، فاستسلمت لآخر محل دخلته، اشترت فستاناً أبيض على عجل وخرجت.

لم يكن هناك لون غير الأبيض يليق برجل عمدها على بياض الصدفة؟ أهناك لون غيره يشبه زهر اللوز المزروع على قصيدة سيتلوها على مسامعها في حضرة دمشق؟ كانت النجوم يومها تتدرب على التنفس بإيقاع ينسجم مع آهات المدن الذاهبة إلى عناق.

لم تكن تعرف وهي تختار الأبيض أنها تلبس لون الكفن الجاهز دوماً للبدايات الجميلة؟ جسدها الذي التحف البياض أخطأ في الحساب والظن، لا، ليس الأبيض دائماً لون العيد والاحتفالات، أ لا تلبسه أجسادنا وهي تركب هودجها الأخير في طريقها إلى آخر مقام؟ كانت تهلكة الفراق تلوح لها من نافذة السيارة، لكنها لم ترها، كل ما كان يهمها هو حبيبها القادم إليها ومعه تذكاراً من القدس و ديوان محمود درويش الجديد.

تضحك وهي تقف أمام واجهة مكتبة. ذلك القلم الذهبي كان يحدق فيها و يرجوها أن تُدخله لعبة الجنون والعشق التي تلعبها بكامل قواها وماسوشيتها، في حقيبتها الآن هدية ستوصي بها حبيبها ألا يظهر في برنامج تلفزيوني إلا وهو بيده، علامة على أنها معه، في العلن كما في السر. كانت تقبل بأن تكون مجرد قلم في الضوء، ولو عاشت عمرها حرفاً في عتمة.

توقفت في ذلك النهار كل أجراس التحذير والمخاوف. لم تشعر بأنها تخون أحداً، أو على وشك خيانة أحد، في الحب تتحلل خيوط الحرام من فوق منطقنا، تذوب فلا يصبح لها وجود على الإطلاق، نشعر بأننا نمتلك مبررات الأرض لندخل معبد الحب، ما من حواجز، أو حدود، أو موانع. الكون كله يساعدنا، الكون كله يقف بجانبنا، فيصبح حبنا حلالنا ومشرعنا، ونقطة قوتنا وأحلى تجربة لنا مع ضعفنا.

تقترب عقارب الساعة من الرابعة ظهراً. يسبقها قلبها إليه. تدخل باب الفندق لمعانقة المستحيل على شفاه رجل. تركض باتجاه الغرفة السرية. كانت تعزف لحن اللقاء على مهل كيلا يسمعها أحد. تصل، تدفع الباب بيدين مرتجفتين وتعبر عتبة مخاوفها معطرة باشتياق عمره عام.

الفصل التاسع

في الفندق

فوق لهفته تخطو، الباب كان مفتوحاً كما اتفقا، تسمع لهاثه ولكنها لا تتوقف، مصرةٌ هي على تنفيذ وصيته بلقاء ينبش من الانتظار كنز العناق فيقدمه لعاشقين وقعا في الهوى على بعد المستحيل، أنفاسهما كانت تلجم الصوت تاركة لصمت الانتظار مكاناً لعزف موسيقى العناق.

كان يقف في زاوية الغرفة يتأمل امرأته وهي تخرج من شرنقة الحروف وتعبر خط الوهم لتصل عالم الحقيقة، جميلةٌ هي كالقدس تخرج من زنزانة الحرية، تفوح منها رائحة دمشق لتلقي التحية على جدران الغرفة وأثاثها وستائرها وملاءات سريرها البيضاء.

تصل نافذة الغرفة فتقف، تصلها أنفاسه، فترتجف: عاصفة من الخوف تجتاح روحها وهي على بعد خطوة ممن امتلك تلك الروح.

أهذا أنتْ؟ تسقط حروفها على أنفاسه،، فتتلقفها بصعوبة وهي تستدير نحوه لتلتقي العيون على مفرق تنهيدة.

يطول الصمت وهما ينحتان على جدارية اللقاء أبجدية اللهفة الأولى.

يلتقط بشفتيه دموعها فيتأوه، ينتظران أن يغير الكون مساره

ولكن عبث. ما من أمل لأن تشرق الشمس من غرب الكون، وأن يتلون الفجر بعتمة تزين سماء الحكاية بقنديل القمر.

تنفك من نفسها وهي تقترب من صدره حتى تلتصق به:

أحبكَ..

لا يجيب. بأي الكلمات يجيب وهو العالق في حب دمشقها منذ أن سمع بحة صوتها. يمد أصابعه إلى شعرها، يتلقف الآهات المنتظرة، عطرها المحّضر من آلاف السنين يعبق في أرجاء الروح فيزده جنوناً بها.

تتعثر بطريقها إلى كلمات تعّدل من ارتجاج الأرض،

جميلٌ خاتمك..

كان في إصبع جدي، وصار تذكار مدينة ..

وهل ستأخذ من دمشق تذكاراً؟

وشمتني دمشق بكِ لتبقيْن في خنصر الذاكرة حتى النهاية..

سقط في تلك اللحظة شريط التردد عن آخر لهفة ليضمها إلى صدره ويغفو على راحة أمنية. كان يعلق بشفتيه نجوماً على شعرها صنعتها أنفاسه طيلة ساعات السفر لتضيء حلكة خوفها من الآتي..

لم تغمض عينيها وهي بين يديه، كانت تريد أن ترى في العين ما يصارع دقات القلب ويدميها. عيناها كانت تلتقط تفاصيل الغرفة بحذافيرها كمن يريد تصوير المشهد بدقة كاميرا وعين امرأة يتأوه على صدرها رجل لأول مرة..

بدا أصغر من صورته التي تظهر في التلفزيون، شاب يرتدي جينز وتشيرت بيضاء، وحضور طاغي يملأ الغرفة كما يملأ حبه حياتها وهو على قيد الحروف.

كان يختلف عن الرجل الذي بدأت بملاحقته وتتبع أثره منذ أن علمها كيف نتعلق بالغياب كطيف لأمنية حزينة.

أأنت هو؟

يضحك : والله أنا هو.

أمعقول أن تذوب ملامح الوجوه في حضرة الحب فلا يعد أمامنا من التخيل إلا صورة بعيدة يدق لها القلب بقوة حين لا نملك سواها؟ ولكنه أمامها الآن.. بين ذراعيها يصل دمشق والقدس بعناق سرمدي..

* * *

يشدها على صدره بقوة. عيناه مغلقتان، ورأسه على كتفها: «ما أحلاها"! «ما أحلاه"! بنفس الثانية، بنفس الحروف، على إيقاع دقات القلوب، ينطق وتنطق، لم يسمعها هو، ولم تسمعه هي.

أنفاسه تغزو رقبتها، تدندن باسمها وهي التي لم تعتد سماع اسمها من شفتيه. كان قد عود نفسه على عدم النطق باسمها خوفاً من أن يجتاحه كما حدث ذات ليلة ضعف. أنفاسه التي كانت تنفخ شرارة من شهوة ، ما لبثت أن نفخت شرارة من حريق على جسد تلك المرأة الذي لم يحمل يوماً ذاكرة .

تمتد أصابعها المرتعشة إلى شعره الأسود، تتحرر من ترددها وتدخل أولى معالم هذا الغريب، تغوص أصابعها بحرية أكثر في شعره، تمسكه وتهمس «أأنت حقيقي؟».

تخترق تنهيدته مسامعها، فتضحك وهي الحائرة الخائفة من غريب عشقته قبل أن تعرف لون عينيه.

عيناك، دعني أرى لونهما.

عيناه كانتا بلون الشهوة، و هل للشهوة لون؟

عيناه كانتا بلون العشق ، وهل للعشق لون؟

عيناه كانتا بلون الجنون، وهل للجنون لون؟

ما لون عيني ، أخبريني؟ ..

عيناكَ بلا لون.

يلتهمها بنظرة طويلة :أحبكِ.

تضحك ولا تعرف أهذا الغريب هو حبيبها حقاً؟ و لكنه هو، هو صاحب الحرف الذي نفخ فيها روح الحياة فصاغها امرأة نصفها كلمات ونصفها الآخر حقيقة.

أحبكِ ، وأعرف أنك حقيقتي وصدفتي وامرأة جنوني.

تلقي رأسها على صدره الذي تفوح منه رائحة السفر و رائحة القدوم من عالم الحروف العتيقة عتق دمشق و القدس. تأخذ نفساً طويلاً كمن يريد أن يخزن للآتي أكسجين حياة، تستنشقه بكل مساحة الشوق التي قطعها حبهما عبر عام من الانتظار. رائحته قوية، تختلط فيها شهوته بعرق ساعات الطيران الذي حمله في جسده ليلامس جسدها المشتهى. كانت سعيدة لأنه لم يستحم. لطالما شعرت بقشعريرة وهي تستحضر كلام نابليون لجوزفين «لا تستحمي إني قادم إليك» ،فكرة الالتصاق مع جسد المعشوق المتعرق كانت تثيرها، وها هو اليوم برائحته أمامها، يدعوها إلى افتراش حواسه ومساحات الشغف اللاهثة لها.

* * *

بشهيق عميق تستنشقه، تأخذ ما استطاعت من عبق شهوته المتعرقة، وتسحب نَفساً طويلاً كأنها تجر عربة جميلة صعبة اسمها الحب.

أأنت إله الحرف الذي أحببت؟

نعم ، أنا هو الإله الذي تورط بعشق مخلوقته..

يشد عليها ، يشم شعرها، عطرها الفرنسي الذي استحمت به قبل قدومها يثيره بقدر ما يثيرها عرقه. يأخذ نَفساً عميقاً، يستنشق ما يستطيع أخذه من معشوقته الكائنة الآن بين يديه.

«أحبكِ». تتغلغل الحروف في شعرها ، بعض خصلاته تعلق في شفتيه وهو يردد ثانية وثالثة: أحبكِ، أحبكِ، أحبكِ.

تنظر إلى عينيه بفرح لا يساويه إلا الخوف، إنها معه تحت سقف واحد، في غرفة في فندق يتوسط دمشق والناس، ومع ذلك دخلته غير مبالية بما قد يقال إن ضبطت متلبسة. العشق أقوى من الخوف، روحها في عشقها «كالسمكة ألقيت في البيداء، تضطرب حتى تعود إلى الماء، وبهذه الحرقة تتقدم إلى مقصدها غير مبالية بشيء».

يمسك يدها، يواصل العزف على أوتار توقعاتها، يجلسان أمام نافذة في الغرفة، ويكملان الحوار الذي بدآه في دمشق منذ عام.

حدثها عن مخيمه الذي احتضن صوته الأول وبكاؤه الأول ونحيب طفولة ماتت في مقبرة. حكى لها عن حقيبة سفره التي وضع بها صورة وطن، و أمه التي كانت تريده طبيباً أو مهندساً فخيب أملها كما خيبت أمله حين وعدته بالعودة إلى بيتهم الذي لم يهدم ولم تكسر به حجرة، كل ما حدث أنه لم يعد لهم، هكذا، ببساطة متناهية خط لها التاريخ قدراً لوطن تعيس اسمه فلسطين.

أخبرها كيف تأخرت عذريته وهو يبحث عن أم بديلة وسط نساء مدينته البديلة عمان، وكيف اكتشف لاحَقاً أن كل الأوطان التي يسكنها لا تشبه وطنه، وكل النساء اللاتي عرفهن لا يشبهن أمه.

«فيا صدر أمي كم أشتقت إليك».

سمعته مع أنه لم يقلها، التقطت نبرته التي لم ينجح بكتم وجعها. كان يتكلم بلهجة فلسطينية خالصة، إقامته في مدن أوروبا الباردة لم تخفت تلك اللكنة الساكنة حنجرته، ما زال ينطق بلهجة وطن تنوعت لهجات أبنائه، وما زال يستحضر قصصاً منحته لقب «لاجئ» وهو المّرحل المبعد بأمر قنبلة.

صوته كان يشبه صوته الذي كان يأتيها من مدن العالم حاملاً لها حكاية من هنا و رواية من هناك، ومع ذلك بقي بنظرها مختلفاً، غريباً، بعيداً... لكنها تحبه.

أحبكَ، مع أني لا أعرفك.

كيف لا تعرفيني؟ أنا هو ، والله أني هو.

ضحك وراح يتأمل ضحكتها المشرقة كشمس تتوسط وجهها، كان ينظر إليها من دون أن يصدق بسهولة أنها أمامه أخيراً، بحبها وشغفها وولعها وجنونها.

يداها ما زالتا في يديه تمارسان اشتياقاً ذا مذاق لا يعرفه باقي الجسد، لم تملك أمام ارتباكها إلا الاختباء وراء ضحكتها ، بينما راح صوتها يتراقص على أنفاسه التي باتت قريبة من شفتيها، خجلت من الحديث عن طفولة غنية بالصور مع رجل لا يملك ألبوم صور، اختصرت حياتها بكلمات مبتورة الحروف، مسلوبة التشويق حتى قاطعها مخلّصاً إياها من عبء صوت ينطق باسم وطن طليق.

«أتسمحين لي أن أقبل عينيك»

لم ينتظر الرد، بينهما مسافة قبلة، اقترب منها وعينيه في عينيها، لم يترك لها فرصة شهيق، قبلَّ عينها اليمنى بشفتين تفوح منهما رائحة الحب، و ما أن انتقل إلى عينها اليسرى، حتى شعر بها تتلوى من الشهوة.

الشمس مع شفتيه كانتا تزحفان ببطء، الأولى لقاع الكون، والثانية لتوقيع عشقه على شفتيها، لم يقبلها مباشرة، توقف أمام شفتيها خائفاً على نفسه من المزيد. لحظة، وإذ بالشفاه تغوص في كوكب من العشق لم يسبق أن تذوقه في شفاه امرأة. قبلها بكل ما أوتي من حب ، غاص في ريقها، ابتلعه وأسكنه داخله، أسنانها كانت تلامس أسنانه، بينما كانت غافية على سحابة قبلة أخذتهما إلى السماء، حيث تعيش الآلهة بعيداً عن مخلوقات الأرض.

«أحبكِ»

«أحبكَ»

كانا يعرفان أن النهاية ستكون ورقة نعي سيعلقها العشق في حارات دمشق والقدس ، ومع ذلك مضيا بكتابة الرواية كما شاء الهوى، لن يباليا بأحداث الجنازة، بساعة التشييع، بحمل التوابيت، برمي الجثامين في تراب عواصم التاريخ التي لم تلتق إلا بواسطة حب مستحيل، كانا ببساطة عاشقان بلا أسماء، وطنان ممنوع عليهما اللقاء في صبيحة يوم تفوح منه رائحة الليمون والزيتون وزهر اللوز.

في زحمة القبلة، ابتعد عن شفتيها:

أريد أن أرقبك وأنت تتكلمين، كان صوتك يزلزلني عبر سماعة الهاتف.

ضحكت وهو يحملها بين ذراعيه، إحساسها بأنها معشوقة حتى الثمالة كان يدوخها . . «كم أحبه»، قالتها وهي تشعر بإناث الكون تتمختر في جسدها . عيناه كانتا تحتضنانها وتتعبدان ضحكتها الكونية التي أضاءت دنيته التي لا تعرفها. وضعها برفق على الصوفا وجلس على الأرض يتأملها، نبوءة اللقاء الأول تتحقق، سيسقط ذات يوم نيزك عشق على أرض الشام ولكن في التوقيت الخطأ.

* * *

لم يترك عبير النَفس زاوية في الغرفة إلا وترك عليها تذكار مرور. كانت الغرفة على يقين بأنها لن تسمع ذاك الصوت الخارج من عمق تنهيدة بعد تلك اللحظات، عابروها لن يدخلوها ثانية، لن يحالفها الحظ مرة أخرى لالتقاط رائحة العشق المستحيل الذي يتأرجح بين يقين وخوف من الفقدان.

نهض من سجادة خشوعه وجلس بجابنها، رأسه على صدرها، ويداه تشدان على يديها :

لم ترتجفينْ؟

أحبكِ، وأعرف أني أستقبل بك آخرتي،

الحب في حكايتنا، بدأ من حيث سينتهي، فلنرتو من خمر احتضاره.

* * *

يقصد حقيبته الحمراء، يفتحها و يخرج ديوان درويش الجديد، والقلادة الفضية التي أحضرها من القدس. كانت تتأمله وهو يطوق بها عمرها وروحها حتى آخر لحظة من حبه.

أمسك يدها وأخذها إلى السرير، كانت ترتجف وهي مستسلمة له، ومع ذلك لم تقاومه وهو يمددها على ملاءات السرير البيضاء ويسند رأسها على صدره ليقرأ لها أحب قصائد الديوان الجديد إلى قلبه:

«أعطنا يا حب، فيضك كله لنخوض
حرب العاطفيين الشريفة، فالمناخ ملائم،
والشمس تشحذ في الصباح سلاحنا،
يا حب! لا هدف لنا إلا الهزيمة في
حروبك... فانتصر أنت انتصر، واسمع
مديحك من ضحاياك: انتصر! سلمت
يداك! وعد إلينا خاسرين... وسالماً»

عرف صوته الذي كان يدون في وجدانها حكاية حب أن الهزيمة هي مصير هذين العاشقين المسحورين ببعضهما، كان يقلب صفحات الديوان وصوت درويش يعلن:

«من لا يحب الآن،
فلن يحب!»

قرار الشاعر لم يكن ليردعه شيء، الحب في هذا اليوم، في هذا الليل يحوم حول ضحاياه مبيتاً نية هزيمتهما ليعلن انتصاره، وليسمع مديحه من كائنات الحروف التي تتنفس من صوت شاعرها، فتزداد إصراراً على الموت في حضرة الصوت والإنذار.

«كن ملاكاً، لا ليعجبها مجازك
بل لتقتلك انتقاماً من أنوثتها

ومن شرك المجاز... لعلها

صارت تحبك أنتَ مذ أدخلتها

في اللازورد، وصرت أنتَ سواك

في أعلى أعاليها هناك...

هناك صار الأمر ملتبساً

على الأبراج

بين الحوت والعذراء»

يشعر ببكائها ينهمر مع الحروف التي يقرأها، فيبادلها البكاء، وتنظر إليه ولا تتكلم، أي كلام قد يقال في حضرة القدس والشام يتبادلان نخب اللقاء ونخب الهزيمة.

يترك الديوان جانباً، يتأمل دموعها الصامتة صمت العجز والمستحيل. تلامس وجهه، إنه حقيقة، تعرف أنه حقيقة فتبكي أكثر لأنه أكثر حقائق العمر وجعاً.

عيناه تأكلهما شهوة تنوب عنه في الجواب. قطاره وقطارها لن يتوقفا عند رصيف محطة واحدة، فالكون الذي دبر لهما هذه الحكاية، هو نفسه من تواطأ ضد لقائهما منذ البداية، فكان المستحيل عنواناً للنهاية ونبوءة منذ البداية.

* * *

ما أصعب الحب حين يأتينا في التوقيت الخطأ؟ يتسلق أحلامنا رغماً عنا، لا يردعه الصوت ولا الخوف، يمضي في غزواته على المخيلة والذاكرة حتى يحولنا إلى سبايا لا يملكن حق الرفض لأنهن ومنذ البداية لم يملكن حق قبوله.

يلتقط شفتيها ويهزم المستحيل في قبلة طويلة تشهد عليها أوراق درويش مطمئنة بأن الحب هو الرابح حتى هذه الجولة، فلا تخف شاعرنا الجميل..

يضع يده على أزرار فستانها ويفكها. صوت ضعيف يستنجد به «لا أملك قوة لمقاومتك، فلا تعذبني بك».

ينظر إلي عينيها، يقبلهما، ويعود من جديد إلى شفاه الحبيبة مكتفياً بعطايا الحب المهداة له بعد شقاء انتظار.

أوراق زهر اللوز تتحد مع جسديهما. تستنشق الآهات الخارجة من شهوات لم يخفت الصوت فيها ولا يبدو أنه سيخفت تحت ضوء شموع الغرفة المنتحبة. وحدها الشموع تشعر بقسوة القدر المتربص بهما على عتبة الغرفة العابرة في صفحات حكايتهما التعيسة.

يتقلبان على الورق، وصوت درويش مستمر في قراءة شعره على مسامع الغرفة ومسامع القبر الجاهز لاحتضان الحكاية. انتفاضة الجسدين تكتب على ملاءات السرير حباً من نوع آخر. كانت تفتح عينيها وهو يقبلها، تنتقل من تنهيدة إلى أخرى منغمسة به وهو يسقي مساماته المتعطشة منها. كان يختم على عنقها وشفتيها وخديها وشعرها وجسدها الملفوف بالمستحيل جواز سفره، تاركاً لها يقين عبور، يعرف منذ الآن أنها لن تصدق أنه مر من ههنا. يعرف أنها ستطالبه بعد الليلة ببرهان لقاء، وبرهان التصاق، وبرهان احتراق على سرير مسكين لن يحظى أبداً برجل يفترش على ملاءاته ديوان درويش وهزيمة حكاية.

لو علقت السماء لقاءتنا على أعمدة الشوارع، على مفارق الطرق، بين صفحات اليوم ليكون لنا بين الحين والحين موعد قبلة، موعد

عناق ينوب فيه جليد المستحيل من على صدورنا وفي شفاهنا التي تتبادل مع بعضها نحيب عشق يعيش في كل لقاء موعد احتضار.. لو كانت اللقاءات بيننا لا تحتاج إلى انتظار، ولا إلى حجوزات، أو مطارات، ولا تأخير في موعد إقلاع الطائرة، تتصل بي تعالي وعانقيني. أركض إليك، دقائق وأكون متعربشة على صدرك ، الباب مفتوح وصدرك مشرعٌ لاشتياقي.

* * *

غادرت الفندق والغرفة وحبيبها. كانت تخشى أن يشي بها الحب ورائحته تفوح من مساماتها دليل عشق. ومع ذلك كانت سعيدة بعطر الحب العالق بها حتى النخاع.

مسكت قلادته، شدت عليها كمن يشهر دليل إدانته بلا خوف و ترقب لما قد يحدث لو عرف الآخر سرها.

أخذت نفساً طويلاً ودخلت سيارتها. كان يلزمها بعض الوقت قبل الضغط على البنزين والدخول في حالة أخرى.

كيف ستتعامل بعد قبلاته مع حقيقتها؟

هل سيسهل عليها التظاهر بأن شيئاً لم يحدث في تلك الغرفة، في ذلك الليل؟ أي سحر ستحتاجه لتنسى الشعر والشمع وصوته؟

كيف سيهون عليهم

حبنا

وينظفون السرير

من آثار عشق

مر في

المدينة
عابراً؟

كيف سيفتحون
النافذة
ويتركون رائحتنا
تخرج
مع الهواء؟

كيف سيزيلون
بصماتنا
من مفتاح
الباب
و كؤوس
الماء؟

كيف سيغرسون
شموعاً
فوق شموعنا
دون
لحظة تأبين

واحدة؟

كيف سيدخلون
زواراً
جدداً؟

عابرون لن
يحفظوا لون
الستارة
ولا شكل
الطاولة
ولا كم زهرة
تزين
غرفتهم
غرفتنا
غرفة عابري
حب
وعابري جسد

اشتاقت إليه بعد أن لسعها برد الشام . «يا ليتني بقيت معه»، أمنية مستحيلة داعبت عجزها في أكثر اللحظات تعاسة. كانت تدرك أن قطاره الذي توقف بمعجزة على مقربة من شهوتها، لن يغير مسار

الكون ويعلن حدوث معجزة أخرى. تتصل به ودقات قلبها تدق مسرعة:

اشتقتُ إليك.

وأنا.. أحبكِ.

ماذا تفعل؟

استحم

أتخشى من أن يلتقطك أحداً متلبساً بي؟

بل أخشى على نفسي من السجن فيك حتى آخر العمر..

لم استعجلت وأزلت بصمات حبنا؟

كنت بحاجة إلى ماء تطفئك يا ناري المقدسة.

لكني لن أستحم منك. سأدخل البيت ورائحتك علي، ألا أستحقك ليلة على وسادتي؟

يتنهد، تسمعه، فيخفت الصوت بينهما ويهويان في بئر حزن.

* * *

ضغطتْ على بنزين السيارة وأسرعت إلى بيتها. كانت تريد في تلك اللحظة أن تطفئ بدورها فتيل الجنون الذي كاد يعيدها إليه لولا الكثير من الأشياء. حبيبها على مقربة منها، في داخل دمشق، وداخل رحم الشهوة الذي رفض إجهاضها، ومع ذلك فها هي تقصد الحقيقة وتترك وهمها الجميل يتنفس بعضاً من عطرها.

يأتيها صوت أزنافور مرافقاً لصوت درويش، فتضيع الكلمات في مسامات جسد ما زال يرتجف في حضرة الرائحة التي تحملها من بقايا التصاقة..

لم تدخل مصعد البناية. كانت تريد حرق أنفاسها على درجات العودة. تركض تارة، وتتوقف تارة، وقلادته المتأرجحة بين عودةٍ، وبين اشتهاء لعودة تعرف أنها ستبقى وشماً على عنقها حتى النهاية.

انتظرت دقيقتين أمام باب البيت. مسكت خصلة من شعرها وشمته. انتظرت دقيقتين إضافتين، تصنعت ابتسامة ودخلت بجسد يرتجف و يحمل امرأتين.

* * *

سجيناً في غرفة عشقه كان يتأمل الكرسي الذي جلست عليه، والصوفا التي حضنتها كآلهة، والسرير الذي حملها إليه ليحبها على طريقة لم تعتد عليها أسرة العشاق.

كان عارياً إلا من صورتها تلف جسده، جسمها المشتهى حد الخوف والتردد بدا في هذه اللحظات مغرياً إلى أبعد حدود الإغواء وهو يرتعش بين يديه. شعر بلسعة غريبة تلامس أطرافه وهو يستحضر ضحكتها، مزيج رائع من طفولة وأنوثة، تنهد هذا الرحالة الذي عرف عند عتباتها أنه لم يأتها ليغزو جسدها: «كم أحبُها».

لن يخرج من غرفته. لن يصافح دمشق إلا بيديها. يستلقي على السرير الذي حضنهما وهما يصلان ذورة الحب، يمسك الوسادة بيديه ويضمها «حبيبتي»، رائحتها تصله دون أن يعرف من أين؟ يستنشقها ويتلعثم وهو يردد أسمها بهمس عاشق يعرف أن أي صوت إلا الهمس بإمكانه أن يمزق شرنقة معبد العشاق، فيردده ثانية وثالثة حتى يرن هاتفه الذي لا يعرف رقمه سواها :

أفكر فيكِ في هذه اللحظة.

أحبكَ

لا تتأخري علي غداً، أريد أن أحب الشام في وضح النهار.

ستراني أمامك قبل أن تشتاق إلي.

ولكني مشتاق من الآن.

إذاً أفتح الباب.

يشعر بتعب ورغبة بالنعاس وهو يستحضرها. يغلق عينيه على حبها وتغلق عينيها على حبه، فينامان فوق غطاء من كلمات ووسادة من حلم ووجع.

* * *

أبكر من الصباح أفاقت. كانت تملك مئة عذرٍ للخروج من البيت، ومع ذلك لم تستعملها. لبست على عجل، وخرجت من انتظارها، لتلاقيه على مفرق مستحيل تفك الحكاية جديلة من جدائله.

كان الوقت مبكراً لتوقظه، ومع ذلك غادرت البيت لتتخلص من عدّ الزمن المتبقي للعناق. كم كانت دمشق شهية في ذلك الصباح. كانت تستحم بندى سماوي على مرآى عيون المبّكرين أمثالها فبدت كما هي على الدوام، معّطرة بأنفاس الكون الذي اختارها من كل نساء الأرض لتكون معشوقته في السر والعلن.

توقفت عند الفندق بعد ساعتين من الدوران حول لهفتها. لم يرن هاتفه إلا رنة واحدة. صوته المنتظر عودتها يستقبلها بصباح جديد، بصباح أول، ولعله أخير، لم يكن أحد منهما ليعرف.

سأنزل حالاً..

لم يدعها إلى غرفته لقبلةٍ أخرى، كان يجهل إن كان يحميها من ولعه، أم يحمي نفسه من ضعفها؟

دخل سيارتها، قبلها على جبهتها هامساً: صباح أول نهار بيننا.

ضغطت على البنزين، لا تعرف إن كانت قدمها هي التي داست بقوة على بنزين اللهاث أم أنها الرغبة المسجونة في جسد محكوم باللاتنفس. الشام كانت بانتظاره، بانتظار القدس التي عبرت حدود المستحيل في يوم سقط سهواً من مراسم التاريخ.

كانت تشعر بعينيه تنهش المسافة القليلة الجالسة بينهما. تلتفت إليه فتراه غارقاً بها كما لو كانت بحراً لمراكب عينيه.

ماذا تريد أن ترى في الشام؟

البيت العتيق..

تتنهد، ياسمين دمشق يهمس في قلبها أنه هو، هو الرجل القادم إليها رغماً عن لصوص الأوطان ليغازلها ويغزل منها حكاية لا تموت.

إلى الياسمين إذاً.

كلاهما عرف في ذلك الصباح، أن العشق والجنون معادلة لا تحتاج إلى فرضيات، كل ما تمتلكه هي البراهين لتثبت صحتها. فكرة الذهاب إلى البيت العتيق رغم سياج الواقع لم تكن أصعب من عودته إلى القدس المسورة بسياج الغاصب. الخوف هو الذي يصنع من المستحيل مستحيلاً، و لكن القرار هو من يفككه، لهذا كان

على الحكاية أن تعبر من ياسمينة الشام المزروعة في فناء البيت لتهزأ مرة أخرى بالمستحيل وعلى مرأى الضوء والحلم الصغير.

* * *

وصلت باب توما. مسكت يده ونسمات الشام الباردة تلسع رغبة العناق التي كانت تفور تحت مسامات الخوف من الآتي.

أهذا هو..

كان ينظر إلى ذلك البيت الكبير بولع لا يعرفه إلا من رّحل من بيته قبل أن يحفظ ملامحه.

سندخله.

كيف؟

تضحك وهي تخرج مفتاح البيت من حقيبتها.

ألم تخبريني أنه لم يعد لك!

البيت لنا ولكنه مسكون بسكارى الليل.

لم يكن في إمكانه ألا يشاركها جنونها. ياسمين دمشق يستحق اختراق الممنوع في نهار يعرف تمام المعرفة أنه لن يتكرر.

أمام باب البيت توقفا. .دمشق التي تسيل منها عناقيد من روح نزار وتفاح من جنائنه تنصت إلى دقات الجسد وهي ترتل صباحاً لا يمكن إلا أن يكون استثنائياً.

شد على يدها وهي على وشك فتح البيت المسكون بأشباح تعرف جيداً أنهم عابرون.

تفضل إلى دمشق..

يجتاز عتبة الخوف ويدخل مسحوراً بما يرى . .ياسمينة البيت تستقبله غير مبالية بما يحيطها من تشويه. بياضها كان أقوى من أية محاولة لتجاهلها ورائحتها المصرة على إحياء عشاقها كانت مصممة على عدم الركوع أمام رواد المطعم المهزوم سلفاً في حضرة كبريائها.

يقترب من الياسمين،يلامسه بحنان، ويقول:كم تشبه حبيبتي.

تقاطع همسه بقبلة كانت تحلم بها طوال ساعات الليل. لم تشعر بالياسمين وهو يتراقص على أنفاس تنهيدته، كانت تبحر في داخله بلا شراع . تتلقف كل المتع التي تركب أمواج عشقه لتأخذها حين يلبس الغياب ويمضي.

شجرة الياسمين تخفي عشقهما من عيون الساعة التي تعد ما تبقى من وقت لدق جرس الوداع. كان غائباً عن الوعي وهو ينزل سلم أنفاسها خطوة خطوة،يشاركها الآه والدمع ورعشة العشق وهما الواقفان على مفرق الرحيل.

تغيب كل الأصوات عن دمشق في تلك اللحظات، ويبقى صوت واحد يملأ الولع حنجرته في أكثر لحظات الحكاية عشقاً.

خارج البيت كان نهار الشام يعج بالحياة، والجسدان العاشقان يعجان بفوضى اشتهاء.

ما من أحد خارج سور البيت كان ليخمن أن القدس و دمشق يزرعان تحت ياسمينة التاريخ ومحال اللقاء فصلاً لا تعرف إلا العرافات إمكانية تكراره.

الرحالة الذي لم يغادر الشام في المرة الأولى إلا مصاباً بعدوى حبها، وقع في ذلك اليوم على كتاب العشق اسمه طائعاً لا يملك أمام الوشم بها مخرج.

كان يعرف أنه سيعود إلى بيته بأنفاس امرأة دخلت قبو أعماقه إلى ما لانهاية. إنها حكاية لا تحدث كل يوم، ولا كل مئة عام، ولكنها حدثت معه ومعها ، وكان هذا كافياً لتدون سطور الوجع على ما تبقى من صفحات العمر.

* * *

خارج البيت العتيق كانت الشام بانتظاره، تتلهف لاحتضان قدسها على مرآى النهار والضوء.

خرجت معه من أنقاض الحلم الحزين لتسابق شمس الخريف المستعجلة ركوب قطار الغياب. كانت تريد الحصول على أكبر قدر من السعادة قبل أن يحين موعد رحيله وافتقادها، فساعات اللقاء كانت تقترب من نهايتها، ودقات قلبها تدق مع إحساسها بالخوف من تلاشي الحلم وعودة الألم في يوم واحد.

لم تهتم بالوجوه والأسماء التي كان من الممكن أن تلتقيها. فغيبوبة الحب تدخلنا في غيبوبة من نوع خاص يقف المنطق فيها وراء كواليس الفرجة عاجزاً عن منعنا، يقف ليراقبنا ونحن نخترق المحاذير ونتجاوز الممنوعات بجناحي طائر لا يعترف بالسياج، فنحن بالحب أحرار من منطقنا، وأبرياء من ذنب أقدارنا التي ألبستنا الأدوار الخطأ في المسرحية الصح.

لم تترك يده وهي تعرّفه على دمشق. مسامات العشق كانت تخّزن عطر وجوده بكل ما أوتيت من حزن، ومع ذلك كانت تتوسل للحزن بالتنحي عن نهارها لبعض الوقت، فلا مكان لغير الضوء في ساعاتهما القليلة.

توسلاتها لم تكن تجدي، فالحزن هنا، معها في كل لحظة

تتنفسها من أنفاسه، فهل يتركنا الحزن ونحن نحضر أنفسنا لجنازة تليق بكم السعادة التي نودع؟

تمر الساعات بسرعة، الشام ترقب عجلة الحكاية وهي تدور في قاع آخر فنجان قهوة يشربانه في أحد مقاهيها.

كلاهما يتفادى النظر في عين الآخر، الحب لا يعترف بالنهايات ولا بأوقات الغروب، ولا بنقاط أخيرة على سطر أخير مع أنه جاهز منذ ولادته لفصل انتهاء.

كانت يداهما تعصر أكسير الشام في ساعة لقاء مستعجلة. تلامس الجلد الذي يغطي وطناً يفور بعشق ساكن تحت رماد حزن مقدر. ترتطم الآه بزجاج سيارتها وحصن مخاوفه. ترتعش يدها بيده، فيطلق العنان لآه أخرى تصطدم ببوابة السماء التي هيأت لهما هكذا لقاء لتزيد في تعذيبهما بعد ستين دقيقة.

توقف سيارتها وحياتها أمام الفندق بانتظار كلمة تبدل الحقيقة، ولكن ماذا كانت تريد منه في تلك الظهيرة؟ أو تعرف ما الذي تبغيه من الحب حين تعاطت مورفينه منذ الرعشة الأولى؟ لم تكن تعرف الجواب في تلك اللحظة التي سألها «أتريدين الصعود معي؟»، ما تعرفه أنها تريد قبلة أخرى وعناق آخر وكلمات أخرى وسيناريو مختلف لا يترك لظل الغياب مجالاً للقدوم.

سبقها إلى غرفته بعد أن هزت رأسها لتلحق به ململة آخر احتمال لقبلة.

كان ينتظرها وراء الباب بلهفة الراحل بعد حين. ضمها بدون أن ينطق بكلمة. لا مكان للكلمات على مسرح الوداع.

كانت تشعر بوقود جسدها يشعل مساماتها الممتلئة بمساماته فتلتزم الصمت مخافة أن تخرج الآه، فتسقط ورقة التين عن رغبتها.

ومع ذلك، خرجت الآه ، فالتهم شفتيها بقبلة. كيف لم يحذر من قبلاته وهو على شفا وداع ، ألم يقرأ مقولة نابليون "أعرف نساء شقين طوال الحياة بسبب قبلة». لماذا يسلمّها إلى شقاء أكيد بقبلاته، وهو أدرى الناس بعجزه عن البقاء معها لقبلة جديدة في يوم جديد.

لم تكن لتحلم بقبلة مماثلة كهذه التي يقبلها بها أمام باب الغرفة. أهناك علاقة للباب وما يحمله من معاني الرحيل بذلك اللهيب الذي أشعله بها؟أم أن القبلة «فن لا يجيده إلا الرجل الخبير».

كم امرأة قبّل حبيبها من قبلها؟ وكم امرأة سيقبل من بعدها وهو الرحالة الذي ينتقل بين غرف الفنادق كما ينتقل بين أحضان النساء بحثاً عن شيء لا يعرفه؟ لم تسأله،لا تريد أن تفسد قبلاته بكلام وأسئلة، إحساسها به كان أقوى وهو يستسلم إلى آخر نفس يأخذه من ذلك الرحالة الذي التقى وطنه بعد أن التقاها. موسيقى باخ "Air in the G String" التي أتتهما من مكان ما من الجنة، وهبتهما قدرة سحرية على الولوج في سرداب العشق.

لم يكن ليقدم على شيء غير تقبيلها. كان يخشاها، ويخشى نفسه، ويخشى الليل المقبل عليه من دون صوتها.

«كم الحياة بدون حب أسهل». .

ينطقها وهو يأخذ نفساً منها، قبلاته تعذبه، تستنفر طاقات احتماله، يشعر بحرقتها عليه، فيزيد من احتراقها. لم تعلق على كلماته، كانت سعيدة بأنه مثلها يتعذب منها كما تتعذب به ومنه.

تشده إليها. .أحبك كما لم تحب امرأة من قبل. .

لا يعلق هو هذه المرة، اختلاجات صدره وروحه وانتفاضات

جسده المتعب لا تسمح له بقول كلمة، إنها بعيدة عنه، مع أنها كالزئبق الذي تتشربه مساماته رغماً عن الدقائق المتبقيات. .

عمدني علىِ جدارية غربتكَ وطناً يعيش على ريق شهوة أبت أن تمر عابرة..

أغلقْ باب الكون ولا ترحل..
أحبني بكل ما تملك من وسائل تعذيب
أنا امرأتكَ المنذورة للألم
صّب في شفتي خمر فراقك
قبل الفراق
لأسكر فلا أراك
ترحل

صوت الكمان يعلو، وصوت الآه يعلو، وصوت الرحيل يدق باب الغرفة:

هيا. . لم يعد لكما من اللقاء إلا لحظته الأخيرة، فعجلا بالفراق واستنشقا ما استطعتما من زفير اللقاء. .

حصاني الراحل دوماً
صار له
مدينة يتوقف عندها
صار له حبيبة
يلف خيمتها
في الرحيل
صار له صبر الاستراحات
حصاني المشدود
دوماً إلى

الأمام
صار يلتفت إلى الخلف
له فرس تشده بوتر سري إليها
تقول له انتظر
برب الحرف المقدس انتظر
ارشف من يدي قطرة ماء
فيه أكسير العشق
يبث فيك حبي
وبعده انطلق
ها قد أنطلق
يركض يركض يركض،من دونما عنوان
وإلى حيث لا عنوان
يلهث وراء
شيء ما
عيناه مثبتتان في الأفق
أذاك هو العنوان
في قلب السراب
ياخذ عليه همه
ثم يتلفت إلى الحبيبة
تلوح
له بيد من حب
طائر هو على قوس قزح رسمته
له
وتلوح له بضحكة قدت من بلور
ثم تصير تلقي إليع حروف

العشق
حرفا حرفاً
من يديها تنبعث الحياة
يتمهل الحصان الجامح
الطائر فوق قوس قزح
يحني رأسه
يلتقط من يديها حروف العشق
يلتهمها
ويرفع رأسه
ينظر في ضحكتها
وفي عينيها:
يا استراحة أيامي الجامحة
يا عشقي
أحبك
بوعد الانتظار
ومن دونه
من بوابات الغيم
المفتوح
وعلى حواف قوس قزح
وعلى ترنيمات
الوداع
العاجز
عن النطق

الفصل العاشر

غادر دمشق مترعاً بخمر الحزن الذي سقته وهي تفتح باب الغرفة. أدرك هذا الرجل الذي ظن أن سفينة مغامراته لن تحّمل أكثر من متع عابرة، بأن شراعه لن يبحر بعيداً عن جسدها بعد ذلك اليوم، ذلك الجسد الذي وهبه شهوة وحرائقاً وحكاية تتقد فصولها في دواخله إلى ما نهاية.

لم تكن غنيمة رحلته إليها سوى قبل وعذاب وقلم. ومع ذلك لم يكن ليحلم بأكثر من هكذا غنيمة. موعده مع النهاية كموعده مع الموت، سر من أسرار السماء، فليماطل القدر كما يشاء موعد الخاتمة، وليتركه يلملم حرفاً من هنا، وقبلة من هناك، حارة من هنا، وحارة من هناك. سفينته لن ترسوَ في ميناء بعد صدرها، والصدف بعد لقائها باعت حقوق ملكيتها إلى ابنة الأمويين حتى آخر لحظة في حياته.

تفوح رائحة الغياب في كل مكان، المدينة رمت عن جسدها عباءة استقبالك، وبات عريها قاسياً، كقسوة الصحراء، جارحاً كالعطش يحرق حناجرنا تحت شمس بلا قلب.

أي غياب هذا الذي حّضره لي القدر يوم جهز لنا اللقاء الأول؟ كيف سأتحمل عذاباته وألم البعاد يتقصد ذاكرتي فيصنع منها وهجاً لحب عبر كوني ولم يعبر..

دمشق باتت شبه فارغة، لا بشر، لا أصوات، لا ضحك، لا صباحات، ليل غريب ينافس غربة الحلم في حضن وسادة باردة، ساعات لا تشبه ساعاتنا،صدئة تتنهد بانتظار همسك،نفسك،صوتك يغني حبي على ملاءات طاهرة لم يبق لي منها إلا أمساً جره الرحيل ومضى.

ألتفت حولي، أتعمد أن أغرق ذهني في صيحات اليوم الممل، فأزداد وحدة وغربة وافتقاداً لوجودك، أحاول أن اشغل ذاكرتي بصور حاضرة أمامي حتى أمضي فترة السجن وراء نافذة انتظارك دون ألم،فأفشل،أريد أن أفشل يا حبيبي في النجاة، لا أريد لذاكرتي أن تستحم منك، سأتركها مملوءة بك حتى يحين موعد صدفة جديد، موعد عناق آخر يطهرني من غبار الوداع الذي رميته علي وأنا نصف ميتة.

كان يبكيها بصمت الحزن وهو يبحث عن انترنت كافيه في المطار ليكتب لها رسالة.

لم يكن يعرف إن كانت ستكون آخر زيارة، الحب حين يكبر يصبح مسكوناً بالخوف من أن يكبر أكثر فيمزق كل التوقعات المرتجفة من الهزيمة.

تعبَ وهو يتجنب نظرات الناس والمسافرين. لم يرد أن يلتقطه أحد خوفاً من شم ياسمينها.

كل يوم أحبكِ أكثر، كل يوم أكتشف مساحات ومساحات من الحب الرائق تحتل قلبينا. أحببتكِ متمنعة ، وأحببتك مترددة، وأحببتك خائفة وأحببتك بكل قبيلة النساء التي فيك..

سأطير معك في الطائرة إلى عالم آخر، سأغفو على رائحة حبك،

ووعد حبك، ونضارة ابتسامتك تشرق على الكون، كوننا الصغير يا حبيبتي..

كانت تعرف أن الشفاء منه مستحيل، فكل شيء فيها حمل منه تذكار حب. كانت تشمه على يديها فتتنهد، وتشمه على شعرها فتتنهد، وتشمه في هواء الشام فتبكي هذا الحب المولود خارج رحم المنطق..

كم تعبتُ لأقنع نفسي بأنك رحلتْ، حاولت ولكني فشلت، سمعت الشوق يطالبني بإحضارك، باسترجاعك ، فأعلنت له رحيلك حتى يسكت وارتاح.

مضى الليل ومضى معه وهم استعادتك، أنت هناك الآن تفرغ حقيبتك وتعيد ملابسك إلى خزانتك التي لا أعرف لونها ولا حجمها، ولكني هنا، في مدينة اللقاء الأول، موطن الصدفة الأولى، أتنهد كلما أعي أني لن أراك اليوم ولا الغد، فقد امتطيت الغياب من جديد قدر الحكاية الحزين، لأمتطي من جديد نكراك وانتظر منك موعد قبلة..

* * *

ساعات ذلك اليوم تجر عذاباً لمن في الأرض ولمن كان في السماء. يأتيها صوته من البعيد، لم تتفوه بحرف واحد، بكاؤها كان ينوب عن الكلام :

لا تبكي.. لا تشعلي حزني بدموعك أيتها الحبيبة..

الكلام ما زال أخرس في حضرة غيابه الذي أضاء قناديل الشام..

قولي شيئاً.. لا تزيد عذابي بصمتك..

الصمت يجيب. الصمت يفهم ويسمع ويرثي لحالهما معاً. كان بكاؤه يختنق في حنجرته ويدمي عينيه، أهذا هو العذاب الذي يرشفه الحب من مسامات البعاد؟

كم أخافُ من حبكَ..

أنا الذي أخاف من حبي عليك، ومن حبك علي، ومن حبك عليك، ومن حبي علي.

تصله تنهداتها فيتقاسم وإياها وجبة الحزن الذي سقط من حقيبة رحيله:

لا أعرف من المنتصر ومن المهزوم في حكايتنا، أشعرنا فرسين يركضان بين وسط الجرحى وبقايا أشلاء، تارة أظننا سالمين، وتارة أظننا مهزومين، من يدري يا حبيبتي، فالنصر ليس من نصيب العشاق في الحكايات..

يدخل البكاء وغصة السماء في ملحمة الحكاية، تعج الغيوم في الكون، الدموع اختلطت وبات من الصعب تمييز دموعهما من دموع إله العشق الذي يرقبهما بصمت.

سأبقى أقلب في أوراق روزنامة الانتظار حتى تأتي من جديد أو ترسل لي وعداً بمجيء، المهم أني سأبقى على وعد لقاء معك ،استقبلك كما ودعتك آخر مرة ، حبلى بحب لن ألده ما دامت ذاكرتي تعج بك، وما دام قلبي أقفل على تنهداته ساعة رحيلك، ستراني حين اللقاء الثالث كما تركتني :أحبكَ كما أحببتك حين كنت حرفاً سأبقى أحبكَ حتى حين ستكون فاجعة.

كم أرادت أن تقول أكثر. وتترك لدموع الحرف حرية البكاء يسيل على مفارق الرحيل.. كم أرادت أن تمد يدها إلى يده من

وراء قضبان الخوف لتهمس بما لم تجرؤ على قوله.. لكنها لم تفعل، مع كل الشوق للبكاء لم تفعل، مع كل الاحتراق للنطق والبوح والتوبة لم تفعل..

الصمت بين الحرف والحرف كان مرعباً كسكوت القبور، متوسلاً كاحتضار أموات يطلقون أنفاسهم الأخيرة.. خجلاً كامرأة عارية تسمع شهيق رجل يرقبها من وراء ثقب الباب.ومع ذلك آثر كلانا الصمت حتى لا ننبح بالصوت ما علق على شرفات أنفاسنا..

ترفع القصيدة كأس انتصارها على دمشق والقدس، مدن العشق لن تقوى على فصول الفراق، فعمت مساءاً أيها الصمت، هنيئاً لك دور البطولة في حكاية حب لن تخالف قوانين الطبيعة وتحفل بنهاية سعيدة، فهلا أخبرتها بما قاله لنفسه وهو يكتبها بحبر الموت.. أخبرها أيها الصمت الحزين قبل أن يقتلها سكون الكون وسكوتـــــه...

كنت استحضُر لحظة الحضور إليكَ حين مررت أمام فندقنا بعد رحيلك؟ أبحثُ عن خصلات من شعركَ، عن ورقةٍ كان من الممكن أن تقع من حقيبتكَ تحمل خطك واسمك ورائحة يديك.

مررتُ أمام الفندق، دخلت موقفه في محاولة مهزومة لملاقاتك، لعيش الوهم بأنك ما زلت هنا، تنتظرني لتطبع على قلبي قبلة صباح ندي، لكنك لم تكن هناك، كل الأشياء أخبرتني أنك رحلت، حتى جاك بريل الذي غنى لنا " ne me quitte pas"، تغيرت نبرة صوته وهو يغني غيابك عن امرأة لا تملك إلا حبك وقلادتك: تعويذتنا التي ستبقيني على حبك وتبقيك في عنقي ترنيمة عشق لن توقفني يوماً عن الهذيان بك ..

الفصل الحادي عشر:

تغيرت خريطة التكوين بعد لقاء دمشق، عرف وهو يدخل بيته أنها لن تغادره، حقائبها كانت كثيرة في قلبه ، ورائحة الهوى اختزلت عبقها بهواء باريس، كميناً لأية محاولة فرار.

صوتها كان يأتيه في الأيام اللاحقة نداء واستغاثة، عُد إليها، المدينة موحشة، وكل ركن من حياتها، يتأوه بحثاً عن ملمس يدك.

الحروف تابعت محرقتها، والأيام دارت على الأيام. كانت أضعف منه في التكيف مع واقعها. كل شيء في حياتها كان يدفعها إليه، لم يسحبها أحد من أمام تيار العشق القادم من القدس حتى بناتها. فقدت وهي تحبه ذلك المطلق الذي يصلح عنواناً لحب الأم لأبنائها، شاركها عن غير قصد حبهما، استحوذ على قلبها ليكون له، محولاً الحب إلى جرمٍ بعرف الكون، وإلى حق في عرف العاشق.

تسافر بي إلى الوراء، تختصُر الحكايات بقبلةٍ وعناق وشاهد أبيض كان يتوسط البيت العتيق حين همستَ بأنك ولأول مرة تهزمك حكاية..

كم تسقط منا أشياء حين نرحل على عجل، تغادرنا بسرعة المطر، تخذلنا حين نفتح الحقائب، فلا نجدها، وكل ما نجده، ظل، ورائحة ، و آثارُ قُبل.

دنوت من روحي، حمّلتها بعضاً من دفئك، ومضيت..

كم خفت من لمسكِ، أنتِ الفراشة التواقة لعناق، وأنا المشتاقُ الخائف من عناق، كنت أدور حول أنفاسكِ، أستجمع ما استطعت، وأبتعد كيلا تأخذي أنفاسي مني وأموت..

إذا أردت نهاية، فاكتبها الآن، أخشى يا حبيبي أن تفتح الباب ذات فراق على مهل، وتذبحني على مهل، لا أتحمل الموت البطيء..

سأعود إليك، سأترك لمسامات الظمأ حرية الأخذ من دون مقابل، لن أتمكن في المرة القادمة من المضي دون أخذ آهك من حنجرة شهوة.

لا تعتقني في المرة القادمة منك، امسكني، ضمني إليك، لا تشفق على توسلاتي، قبلني من دون إذن، ومارس على صدري جنون الشغف حين يعرف أنه لن يحظَ بلقاء آخر..

سقف التوقعات كان يرتفع يوماً بعد يوم في تلك الحكاية، كانت تخشى من البوح لنفسها عما تريده نفسها، وكان يخجل من صمته وهي تسأله «إلى أين نمضي"؟

إيقاع الحب بعد الشام كان يتسارع، قفزا فوق الكلمات، باتا يريدان أكثر، الحروف التي امتهنت فن الحرق، صارت تتألم من النار وهي تحرقهما في أسرةٍ ينوح بها صوت الافتقاد.

منذ زمن بعيد، اتفقا على أن أبطال الحكايات يغيرون في سيناريو النص، ويعزفون على آلات لم يخترها مايسترو اللقاء حين رتب لذلك اللقاء، ومع ذلك، كان التغيير الذي يكتبه الحلم بخجل أكبر مما يستوعبه واقع كلٍ منهما.

كان يعلن لها في أكثر من حديث، أنه لا يريد من الحب إلا

الحب، كان يعجز عن تحمل ما قد تصل إليه من وراء حبه، يخشاها، يحبها، يريدها، يشتهيها، يغار عليها، يستحضرها وهو مع زوجته، فيصب فيها ولعه المجنون بامرأة لم يحظى منها إلا بالقبل.

اخرجي مني، لا، لا تخرجي، ابقي، اثمري كما تشائين، انبتي في خلاياي بقدر ما تشتهين، وإن قلتُ لكِ ارحلي، لا تصدقيني، سأكون حينها مخموراً، مجنوناً، مصاباً بفقدان ذاكرة.

* * *

سافر إلى برشلونة بعد شهرين من لقائها لحضور واحد من المؤتمرات التي يشارك فيها عادة. كانت معه هناك، تشاركه ملاءات الفضاء، فتعج الأندلس بها. لم يكن معتاد على الاتصال بها متأخراً ولكنه لم يتمكن من منع نفسه عن ارتكاب فعل الشوق علانية. اتصل بها مع كل الاحتمالات الممكنة الحدوث، ولكن ما من احتمال من تلك التي وضعها حدث. صوتها الذي جاءه وشوشة يخر لها الليل، حرق المسافات بين برشلونة والشام، فانشق الكون على إيقاع الهمس شطرين: أريدكِ معي..

تخرج الأطياف من أجسادهما وتلتقي.. على مفرق شهوة تلتقي، مشهد ينحت في المخيلة فصلاً مترعاً باللذة يبدأ ولا ينتهي:

العبي بشعري، اتركيني أثمل بلمساتك وثقي أني لن أرتوي

تمد يدها من نافذة الليل الدمشقي، تترك لأصابعها حرية العزف على أوتار اللهفة، تلعب بشعره، تحرك فيه عاصفة من وله .

ملاءات الليالي العابرة تسمع صوت الآه، حراس الحدود يتركون أماكنهم، يتفقدون الكون، يبحثون عن مصدر الآه، لم يكن

من السهل أن يخمنوا أن التاريخ أعاد إلى الأندلس مجد العشق المهدى من دمشق والقدس ذات ليلة صيفية.

يصاب الليل برعشة الإصغاء، هو في برشلونة تسبح له كواكب الأندلس مرددة ترانيم الاشتهاء المقدس، وهي في سرير مرمي عن طريق الخطأ في غرفة رجل آخر تتقد بجمرات مخيلة لا تحمل منه إلا صوراً واشتهاءات يعزفها غيتار تفوح من أوتاره روائح المستحيل.

تعالي إلي.. الآن.. اتركي الدنيا وتعالي..

ينهض جسدها من جسدها، يخلع عنه قميص النوم، يرتدي رداء شغفٍ يليق بليلة أندلسية، ويمتطي كوكباً يطير من نافذة الغرفة ويمضي بها.

محلقاً في سماوات الكون السبع يطير ذلك الكوكب، أميرة من أميرات ألف ليلة تتمختر على هودج يؤجج شهوتها بنار الانتظار والتوق للقياه.

حواري الأندلس تفتح بوابات العبور، تدخل من بوابة، وتخرج من بوابة حتى تصل إليه: عاشقاً يترقب وصولها إلى مملكة أندلسية.

تقترب منه وصوت اللهاث يملأ موطن الأمويين، يمد يده ويسحبها من سريرها، فترى نفسها معه، في برشلونة، في رحم المستحيل الذي وعدها في تلك الليلة أن يدخلاه معاً ولو بقيا لآخر لحظة في عمرهما يدفعان ثمن تذكرة الرحلة.

الفصل الثاني عشر

لم يبذلا الكثير ليلتقيا في الأندلس، همسُ تلك الليلة لم يبق همساً معلقاً على جدران غرفة في برشلونة، الأندلس بكل جموحها مدت يد العون إلى الكون ليتم ذلك اللقاء في سرية تامة.

كل شيء في تلك الأيام كان جاهزاً لتقديم المساعدة، فالبدايات تحظى على الدوام بأعوان من السماء والأرض، والنهايات تقبع وحيدة جريحة في ركنٍ بعيد حتى لا يسمع طلب نجدتها أحد.

كان عليهما أن يلتقيا من جديد، الشام لم تفِ بلهفة العشق، قال الجنون كلمته، وانطلقا وراء لهاث الشوق بلهاث أقوى وأشد.

لم تضطر لقول المزيد حين أعلنت لزوجها قرارها بالسفر، أراد في ذلك الخريف منحها فرصة البعاد عن الشام عساها ترتاح من حبها، فتعود إلى حبه، لهذا قال لها "enjoy" وتركها تسجل في الرحلة التي تنظمها إحدى مكاتب السفر إلى إسبانيا وباريس.

تركت بناتها في عهدة المربية، وقصدت مطار دمشق ومعها حقيبة صغيرة والكثير من الأحلام.

سافرت إليه تنشد أربع ليال في حضنه، وبعد ذلك لن تتوسل للقدر من أجل يوم خامس، ستكتفي بما ستهبها إياه الأندلس من نهارات ومساءات وآهات مشرعة صدرها على عتبة طريق العودة، لم

تكن تعرف أنها ستماطل الرحيل، وتؤجل موعد الفراق، وتتوسل لليل أشبيلية أن يطول حتى لا تنتزعها الحكاية من صدره.

* * *

في باريس كان يعد أنفاسه وأنفاسها حتى تأتيه و تمتطي حبه إلى سماء الأندلس. سفره إلى ملاقاتها لم يكن يحتاج إلى عذر يبرر به غيابه عن البيت. هو عاشق للسفر بامتياز، رحالة يجوب العالم بحثاً عن جواب أو رداً على سؤال لم يعرف قبلها ما هو، وما عرفه بعدها كان الأفضل له ان يبقى مختبئاً.

حزم حقيبته وراح ينتظر موعد طائرتها ليلاقيها ويأخذها إلى أندلس الحلم، لم يندم لأنه لم يجعل وجهتها دمشق-غرناطة، كان يريدها معه أكثر وقت ممكن، لهذا خطط لوجهة سفرها على هذا النحو حتى لا يسقط من احتمال لقائهما احتمال عناق.

لم يغادر بيته باكراً، لم يشأ أن يلفت نظر زوجته إلى أي شيء، كان يخشى أن تسقط حصى صغيرة على حلمه، فتخرب الحلم برمته، لهذا جلس مع زوجته يشرب فنجان قهوته، وصوت الأيام الأربعة يحثه على النهوض، ولكنه لم ينهض، فحين نكون على وشك اقتراف جريمة حب، نظن أن الكل يرانا، الكل يعرف أين اللقاء ومتى، الكل يرى طيف الفرح يتراقص حولنا كجنيّ، فنتوقف عن الحراك، نلزم الصمت، حتى لا تسقط منا كلمة تستنطق مشاعرنا فتسقط على مرأى الطرف الآخر معلنة فضيحة عشقنا دون وجل.

لم يلتفت إلى زوجته وهو يغادر إلى روحه، قصد سيارته ليلحق بها على غيم اللهفة.

* * *

تستقبله أنفاسها، تخيم عليه وسط المسافرين والحقائب، لم ينطقا بحرف، سبقتهما الشفاه إلى رحلة الجنون. تسقط الحقيبة من يدها، يسقط المنطق من مخاوفه، ويتوحدا في قبلات تصلِ أهاتها إلى جدران مطار ديغول العتيقة.

يالله.. يالله

تناجي بدموعها رب الكون، لا تملك غير الشفاه لتسحب من شهيقه كل العشق الساكن فيه. ينسى الناس، ينسى خوفه، ينسى احتمالات رؤيته وهو ينهال عليها بلوعة تفتت قلبه، ما هذا الحب يا الله، تتمتم خلاياه، تبكي خلاياه، تتوسل إليها ألا تتركيه هذا المعذب من حبكِ أيتها المرأة الخارجة من ضلعه حين تشكلت الأرض.

أنفاسها لم تكن أنفاس امرأة قريبة ممن تحب، كانت حريق يشتعل من صدرها وقلبها وجسدها وخوفها ويقينها بأنها ستحيا أربعة أيام على صدره ثم تموت. فالحب كما قال بلزاك «رجل وامرأة وحرمان»، وكم كان بلزاك محقاً في يقينه.

كانت ترتجف بين يديه وهي تحمل ياسمين دمشق على صدرها اللاهث. تهمس له: إلى الأندلس، يجبها: إلى الأندلس يا ابنة الأمويين ويمضيا بجنونهما.

كان يشد على يديها في انتظار رحلة باريس - غرناطة وفي الأفق يلوح له الليل سريراً يريد أن يفترشه معها، مشهد الليل والأندلس كان يعّمد شهواته بملذات تفوق خياله، ملذات تعتصر قدرته على البقاء بعيدا عن شفتيها في طائرة تطوف الكون لتصل إلى الحياة.

لم يأتيا على ذكر شيء يتعلق بأسرتيهما، كانا يتعمدا التغريد خارج سماء الواقع، اللهفة للأندلس تفوقت على مرارة تركها بعد أيام أربعة.

كان ينظر إلى أصابعها وهو يلامسها بآهاته، فتكويه رغبته وهو يتخيلها تمتطي شهواته في حضن ليل ثمل.

تتصاعد أنفاسه عشقاً، فتلتقطها، تلتقي عيونهما على حافة رغبة، فيرمي بحذره من نافذة الغيوم ويقبلها، تلك التي جاءته بلا ذاكرة، ذاكرتها كانت بجاهزية الامتلاء، كلها كان جاهزاً للعشق والانهيار، العشق ككل الهبات السماوية لا يأتي من دون ضريبة، وكم كانت مستعدة لتدفع ضريبة دخولها إلى الأندلس من بوابة التشريفات حتى لو خرجت من باب الجحيم.

في الطائرة بدأت بروفة العشق على مقاعد متجاورة. لم تكن بين الشفاه مخاوف تمنع اشتعالها، كان الناس يتلاشون بأصواتهم وصورهم وزحمتهم لتبقى هي وهو عالقان بالسماء ومغادران الأرض لبعد حين.

سأترك الليل يسمع تنهداتنا ونحن نشق الطريق إلى الداخل.

لم تنتظر آهاتها لحظة، ها هي تخرج من روحها الواقفة على عتبة عينيه:

اتبع آثار تنهداتي كي تصل إلى قبو اشتياقي.

ضمها إليه، شمها وراح يهمس لها بشهوة تغلي تحت جلده.

السماء تتثاءب، تفيق على صوت طرقات قلب الكون، ماذا عساه يدور في الأرض، تتساءل وهي تطل من غيومها على الأندلس.

الأرض كلها أصبحت الأندلس في تلك الليلة، الشام والقدس يقصدان السرير نفسه، الغيوم تفيق غيمة غيمة، تدعو أنفاسها إلى متابعة ما يجري على الأرض، عناق المدن العظيمة مشهد قد لا يتكرر، فهيا لنشهد ماذا سيحدث بين الياسمين وزهر اللوز..

* * *

في فندق صغير وسط غرناطة كان الليل يحضر نفسه لاستقبال هودج عشقهما. رافقها إلى غرفتها من دون أن ينطق بحرف.. كان يخشى الكلام كما كانت تخشى سماعه يتفوه ولو بكلمة واحدة.

وضع حقيبته على الأرض، ووضعت حقيبتها، وعلى صوت شهقات الكون وضع يديه على كتفيها وقربها من شهوته، لم يقو على تحمل رغبتها تتساقط من عينيها، أغمض عينيه وترك لشفتيه قرار البدء بعد أن كانت كلماتهما بدء البداية الأولى..

أي عاشق وأي مفتون وأي صوفي عرف أن في الشفاه كل ذلك الخمر؟ما هذه المفاتيح التي تحمّلها القبلة في شفاه من نحب؟ أيكون العشق قد حفر قنوات بين الشفاه وذرات الجسد الهائم بصوت الريق يسبح في تنهدات المعشوق؟ قبلاته كانت تفتح براعم جسدها برعماً وراء برعم، تطرق زجاج الرغبة فينهار الزجاج ومع ذلك لا يجرح أحداً. خجلت الكلمات من المشاركة، تنحى أزنافور، ووقف درويش مذهولاً بعشاقه من دون أن يقول حرفاً من دواوينه، وحده الغيتار يملك جرأة الصوت والبوح والنطق...رب العشق لبس جسد عازف وجلس على عرش الكون يعزف، فاحتار، والأرباب لا تحتار: من عزفه أحلى.....قبلاتهما أم الوتر؟

* * *

لم يشعلا الضوء، لم يكن للضوء مكان في دهاليز جسديهما. ضوء القمر القادم من بعيد والمطل من نافذة الغرفة الصغيرة كان يضيء وجوههما، العيون كانت تلتقط في لحظة شهيق عابرة ماذا بإمكان الحب أن يفعل فينا ونحن على مشارف تنهيدة. كانت تراه كيف يتذوقها، يستطعم مذاقها بلهفة المدرك أن لحظات كهذه لن تدوم.

ويح العشق ماذا يفعل فينا حين يهزم المنطق في الضربة القاضية.

يزنر جسدها بشفتيه، يعبر بهما متاهاته المشتهاة ليشعل في كل مساماتها قنبلة جاهزة للإنفجار. السرير يتحول إلى رحلة اكتشاف لأبجدية الجسد في أكثر حالات رعشاته حدوثاً.

أدوخ منكِ وبكِ، فلا أجد غير جسدك ليلتقطني.

لم يكن لينتظر حروفها حين قال ما قاله، انتفاضة جسدها بين ضلوعه كانت الجواب، فلم عليه أن يتوقع جواباً آخر. كان يترك على شعرها وعينيها وعنقها قبلاته التي كثيراً ما استحضرتها في ظلمة غيابها. حضورها الكثيف بين يديه لا ينسيه موعد عودتها إلى الغياب. كان يعصرها وهو يعرف أنه باق من الزمن ثلاثة أيام لترحل وتأخذ معها رائحتها. كيف للعقل أن ينسى حقيقة أنها ستغيب. كل درجة من درجات النشوة التي كان يصلها معها وبها كانت كافية لتذكره بمساحة الغياب التي ستحتلها حين ترحل. يسمع من جديد ذلك الصوت القديم الجديد الذي يئن في داخله كلما تراءت له القدس وطناً مملوكاً لغيره، يبكي جسدها الذي يشاركه به رجل آخر فيخفي دموعه في شعرها تعباً من هزيمته وعشقها.

«وأنت معي يعرق الصمت، يغرورقُ

الصحو بالغيم، والماء يبكي ويبكي الهواء،

على نفسه كلما اتحد الجسدان»

حروف درويش التي نطقت أخيراً، شاركتهما ملاءات العشق التي لن تنسى..

الأندلس كلها لن تنسى. حكايا الحب المهزومة هي أكثر الحكايات العصية عن العبور فوق ذاكرة الكون. وقوفها على حافة النهايات يبقيها حية ولو على شكل جثة تنازع من أجل البقاء..

الصبح يقطع خيوط الليل على مهل، في جعبة المستحيل ثلاثة أيام مقدمة على أطباق سحرية قد تغير مسار الاحتمالات التي لم يتوقعانها.

تفتح عينيها، فترى رأسه على صدرها غارقاً بأنفاسها. تتأمل تفاصيل الغرفة الصغيرة بتأنٍ. كل شيء يبدو لها متوهجاً كشمس غرناطة، «كم أحبه»، يسمعها ويتسابق مع شهوته إلى عنقها ليدون بشفتيه كل أشكال الرغبة التي ما زالت مستيقظة.

صباح الأندلس حبيبتي..

يخرج العشق من مسامات الشوق، يباشران فعل الحب المدرك أنه لن يحظى بعد اثنين وسبعين ساعة بهكذا صباح.

تخلع خمار الخجل على عتبات الضوء. تحرر شهوتها على لهيب المتعة المؤقتة وتمضي في نبش لذتها من مخابئ الجسد. إحساسها باللحظة المسروقة من فم المحال يشعل موقد شغفها. كانت تستطعم جسدها المثار قبل أن تستطعم جسده فتنتفض من

الإحساس بأنها امرأة، بكل شظايا الشهوة التي تخرج من مساماتها وصوتها وتأوهاتها .

امرأتي المشتهاة..أيتها الطالعة مني ومن حروفي، والنازلة في وفي حروفي، كم أشتهيك يا ريح العشق، وليل الصب الذي أشرق علي. أجنون كل هذا الذي نفعله يا مجنونتي الرائعة؟ إن كان جنوناً فكم أعشقه، وإن كان انتحارا، فكيف لي أن أرفض الموت على جسد تفوح منه روائح الياسمين؟

كانت الأندلس ترشف فنجان قهوتها على الرصيف المقابل للفندق، تُطرق السمع إلى معزوفة الآهات وتأخذ نفساً طويلاً من سيجارتها، كانت سعيدة بأن يختارها القدر شريكة في ذنب العشق، تطفئ سيجارتها وتشعل أخرى. صبرها يكاد ينفذ وهي تتوقع كل سيناريوهات النهارات الثلاثة، تقول لمن حولها «هس»، الضجيج ممنوع اليوم، وحدها آهاتهما من لها الحق بالصوت حتى تعيد لمسامع الأندلس تنهيدات الأمويين العتيقة.

* * *

عليّ بعد جنون، يعيش عاشقان حرقة لقاء مستعجل في نهار مختلف وضوء يجر مساحات بأبعاد لم يألفاها. يتأملها وكله سارح في كلها: أيا هذا الكل كيف تذوب في أنا العاشق نقطة نقطة، فتتوه بكلك في مساماته ولا تلبث أن تعجز عن العودة إلى الكل الذي كنته قبل لقائه..

كانت تشعر بتأوهاته تجول شوارع حيرته، ومع ذلك تابعت تسريح شعرها، لا تريد لنهارها الأندلسي الأول أن يختصر ما تبقى من أيام ويصل إلى منصة اليوم الأخير.

تتجاهل دمعته العصية عن البوح وتسأله: إلى أين المسير؟

يترك الكنبة الصغيرة ويتجه إليها بشهية عاشق نوبه الهوى، يهمس بشفتيه التي تقبل عنقها «سأعيد أمجادك يا ابنة الأمويين إلى صفحات العشق، فهيا نصعد أبراج المستحيل ونلمس القمم».

السير في غرناطة على الأقدام يشبع الرغبة في أن يكونا جزءاً من حقيقة. كل شيء في الكون بدا مختلفاً لعاشقين أخذا من رب العشق منحة لليال أربع. لم يكن المكان ليبخل على العشق بنفخ بعض من روحه في روحه، في الأمكنة نبض يزيد الآه آهات، وآهات الأندلس ما زالت مترعة بآهات زمن كان فيه العشق مسرحاً في مكان.

صوت فيروز يرافق الخطوات، يملأ النهار الأندلسي بلحن خلقه الرب في حنجرة. كان يعرف كم تحب «أهواك بلا أمل» حين سمعاها قادمة من السماء، فالرب أعار فيروز صوت آلهة تعبة حتى لا يضيع الصوت في السماء، فيبقيه على الأرض. يقبل دموعها، يشعر بالهوى الخائف يهوي مع دموعها في شفتيه، فيخشى الكلام حتى لا يبادلها الدمع بدمع أكثر.

كانا والزمن يمشيان معاً، كلٌّ يخاف من الآخر، وكلٌّ يرقب الآخر بخشية ويقين أكيد بالهزيمة. الزمن الذي كان لوقت طويل يظن نفسه الغالب في حكايا العشاق المحكومة بالوجع غيَّر رأيه تحت سماء غرناطة، فما هذه الغلبة التي سيحرزها على العشق في حكاية لا يمثل إسدال الستارة نهاية بمعنى النهاية؟ كان على علم بأن العاشقين لن يتقاعدا عن الشغف حتى لو عاشا الدهر بأمكنة لا تحمل التوقيت نفسه، ولا الضوء نفسه.

النهار يمضي، ومقاهي غرناطة القديمة تتناوب على رؤية القبلات تنهش الآه على حافات طاولاتها.

كم جميل أن يمارس العشق تحت الضوء، من دون خوف ولا حذر، هكذا ببساطة، شهوة، فقبلةٍ، فآهٍ، فشدٍ على الأيدي، تعالي نعودِ إلى فندقنا ونغير مواقيت الحب في مطارحة التنهيدة على ملاءات الشغف.

ركضا إلى الفندق في الظهيرة، لم يدخلا المصعد، الولع أسرع والطوابق الأربعة ستتلاشى على درجات السلم.

مع اللهاث يدخلان الغرفة. يلبسان على عتبة الباب عريهما ويبدأن الترتيل بأصوات شهوة ترن لها أجراس الحكايات المطوية و تلك التي لم تكتب بعد.

الجسد في تلك الظهيرة كونشرتو تنهيدة، عزف منفرد على كل الآلات التي اخترعها الرب في جسد. لم يريا الضوء كما لم يحسا بالعتمة ليلة أمس، إنها الغيبوبة التي أبقتهما يقظين ولكن في ملكوت آخر.

كانا يتجولان في قبو أودعه العشق كل خمور الملذات ليوم كهذا، للحظة كهذه، لحبٍ يتنفس وجعه على أوتار ناي حزين.

كانت نايه وغيتاره وقيثارته وكل ما يمكنّه من العزف. فالموسيقى التي كانت تخرج من مسامات جسدها المتأوه مع شفتيه ويديه وأنفاسه الخارجة من شهواته راحت تسجل نوتة مختلفة في حكاية مختلفة.

كان يعرف وهو يعتلي عشقها أنه سيبقى أسير رائحتها لآخر لحظة يتنفس بها، كانت ترتجف، تتأوه وهي تصنع من هلوساته

ترنيمة لبعد حين، فالغيبوبة التي كانت تحتضن ولعهما لم تبعد عن الذاكرة استحالة أن يتوقف الزمن في الأندلس طويلاً، . العشق قطار يبدأ من محطة الشغف، وينتهي في محطة الوجع.

ماطلت الشمس قدر الإمكان ساعة الغياب، كانت تخشى أن يفوتها مشهد العشق المتفجر فوق بركان اللحظة، فتدعي التعب، تتظاهر بأنها لم تنه حزم نورها بعد، النهار كان في غرناطة يومها أطول من أي نهار آخر، لم لا، وما من ضمانٍ لنهار آخر يملك في ستائره ثقباً على أندلس يتراقص من تحت قدمي حكاية.

العتمة تناشد الشمس أن تختفي: هيا، اتركي المكان لي، حان الوقت لألعب دوري في خياطة ما تبقى من ساعات اليوم، امنحني دوراً في حكاية قد لا أحظى بمثلها..

التبادل بين العتمة والنور يتم على صوت شهيق العشق لغدٍ يجلس منتظراً وراء حدود أيام ثلاثة.

كانت القبلات تنصب خيامها على شفاههما والنور ينسحب رغماً عنه من مسارح الكون. لم يشعرا بالعتمة ولم يملكا الوقت ليودعا الضوء، كانا تائهين عن الواقع، يسبحان في فلك القبلات من غير أجنحة.

لم يكن أمامهما إلا الحب، ممارسة الحب لم تكن مطارحة بين جسد وجسد، كانت تفاصيل وعناقات وشرارة من كلمات منثورة في وجه المحال، غرناطة في اليوم الأول كانت تُدرب سمعها على تنهداتهما، توصي سمائها بالكثير من الشمس والكثير من الفرح، فعلى عتبة أيام تحضر الأقدار على مواقد الانتظار وبكل نكهات الوجع وليمة مشّكلة من الألم، فامنحيهما سماء غرناطة ما

يستحقانه، الألم على الباب يعّد العدة للإجهاز على ما تبقى من أنفاس.

قبل أن تخدعهما اللحظة المعاشة، صدقا الوهم، كذبّا الحقيقة ومضيا يبحران في بحر بلا يابسة.

لم تكن غرناطة في تلك الأيام محطة عبور في عرف العشق، كانت البيت المتّخيل، والنهار الذي يهرول عكس السير، والليل الحاضر بغيابه، المغّيب بحضوره تحت صوت الشغف يطّوله.

غرناطة كانت سقف التمني الذي اخترقاه عكس كل التوقعات، عكس السيناريوهات، عكس التحضيرات القدرية التي كانت تخطط لقطع حبل سرة الشوق عن اللقاء، ولكن اللقاء حدث، حدث بأعلى درجات اللهفة، الشوق لم يَسكن باللقاء ابن عربي، فعول عليه قدر ما تشاء، الشوق في الأندلس لم يخذل العشق حين التقيا على حافة رعشة.

كان الكلام في نص الحكاية الارتجالي شعر وحب وتنهيدة أجساد. الحرف والآه واللذة اجتمعا في لقاء العمر ليكونوا مرثية لحكاية.

غرناطة ليست المكان ولا الأندلس ولا المدينة التي مارسنا فيها على مرآى الضوء عشقنا، إنها قرار السماء بجعل حكايتنا بلا نهاية. كل يوم سنعيشه هو امتداد لأندلس أحيينا لياليها بحبٍ لن نعرف الخروج منه، فلو لم نمر بغرناطة لما انتصرت حروب درويش علينا، ولكننا مجرد عاشقين تركا من خمر العشق نصف الكأس ، ولكننا حقيقةلأن غرناطة كانت حقيقة، وقدر، وقرار أخذه رب العشق ليرجم روحينا بزهر درويش.

* * *

كان يوقفها تحت السماء ويقبلها. في الأندلس لا يحتاج العشاق إلى جدران وسقف وباب مغلق من أجل قبلة. المشتهى مباح بكل أشكاله. يقّبلها والناس من حولهما يعبرون.

كانا على علم بموعد الذبح، الموت في آخر أيام المحتضر يكثف لحظات الأخذ، أو يشنقها، والفراق كان الاثنين معاً.

في الليلة الثانية قبل الأخيرة، سمعت الأندلس صوتاً قادماً من أزقة الروح ليحاكي الجسد بلغة تحرك كل خلاياه.

سعير النار كان يشتعل وهما يكسران صمت القبلات بكلمات خارجة من قبو الرغبة.

للصوت في ممارسة الحب وقع يزحف على أرضية الشهوة فيؤججها ويحولها إلى اوركسترا تتعالى موسيقاها في أرجاء الروح، فيعّم العشق حتى يكاد يتهاوى فلا يتهاوى، جوقة الشغف تتلقفه على ساعديها حتى يتدلى بين الأرض والسماء، ومع ذلك لا يقع، مع ذلك لا يصعد السماء، يبقى بين وبين، ككل الحكايات التي يحتار العشق بكتابة صفحتها الأخيرة.

شعرها كان يغطي صدره، يزين عتمة الليل بجمرات من نار، فيتوه الجسدان في الـ هي والـ هو متعربشان على أرجوحة من شهوات بين القدس ودمشق:

قل من أنا، ناديني باسمي، لا تخفيني وراء ستائر خوفك..

يقوله ذاك الاسم، يُسمعه للكون، يفك بكارة خوفه بحروفه التي تجرح قلبه وهو يلفظه.

يشبعها حباً، يقلبها، يديرها، ينتفض على مرأى عينيها، يقبل شعرها المسدول على كتف الليل، يسألها:

ما سركِ أيتها الحبيبة؟

تغوص بين ذراعيه، تتلقف شفتيه من مفارق جسدها زهرُ لوزٍ، تطلق لإناث الأندلس العنان للتمختر برفقته فوق ملاءات الليل:

القدس أرسلتني إليكَ وسيط عودة، فعودوا

يدخل في خلاياها، لم يترك خلية فيها من دون وشمها به.

أتخيلك مفروشاً لشهوات زوجتك، فأتمزق غيرة منها

معركتكِ معها غير متساوية،

معك حق، أنت كلك لها، وأنا ألتقط الحروف من كواليس الضوء..

يضع رأسه على صدرها، مراكبه التي وقفت في موانئها لم تعد تجرؤ على الإبحار:

نساء الأرض مهزومات أمامك أيتها الحبيبة..

* * *

غرناطة كانت على أهبة الوداع في يومهما الأخير. خرجا من الغرفة. تناولا الفطور بسرعة ومضيا.

ليست صدفة أن يبدو النهار بحلة الموت، فستانها الأبيض الطويل كان يجيب عن كل الأسئلة التي تنتظر الجواب. أكفاننا قد تكون الجواب والخلاص وأحياناً تباشير النهاية لبداية محكومة بالنهاية.

لم يأتيا على ذكر اليوم الرابع الذي سيقضيانه في أشبيلية، كانا يؤجلان الحديث عن آخر عناق، وآخر قبلة، وآخر خطوات سيتركانها تذكار مرور في وادي إشبيلية الكبير:

هناك سنكتب أسماءنا في لائحة العشاق، سنحقن ذاكرة الوادي الكبير بأصواتنا حتى لا ينسى أنّا مررنا ذات ليلة به، رجل وامرأة لم يغيرا مسار حكايات الحب المتجهة نوماً نحو مصرعها..

ضاعا في تلك الليلة عن الفندق وهما يركضان خارج المتوقع. لِمَ علينا أن نعود، يرددها وهو يحملها بين يديه عابراً بها شهوات الروح قبل الجسد: لنبق ، تقولها ورأسها على كتفه.

دارا غرناطة برفقة الليل، تارة يقفان لبعض القبلات، وتارة يتابعان السير من دون هدف، ا لهدف كان المفردة الوحيدة التي لم يأتيا على ذكرها في تلك الأيام الثلاثة .

كنت أصلي حتى نتوه أكثر.. لم نستعجل النهايات الواقفة على حافة سرير؟ نسأل ذلك الرجل البدين ذو اللكنة الإنكليزية عن الفندق، يدلنا على عنوان آخر، أين هو الآن لأشكره على حماقته التي زادت بعمر لقائنا ساعة أخرى..

نتوه من جديد .. قلبي لا يصدق أني معكْ.. في ليل بعيد ومدينة بعيدة وعلى مقربة من غرفة عشق.

نصل الغرفة متعبين، ننسل تحت الشرشف. تضع راسك على الوسادة «كم اشتقت إليها»، أنت ممدد وأنا أنظر إليك وابكي .. كنت أشعر بحبٍ قادر على نسف المستحيلات .. حبكَ كان يهزم قدرتي على التعقل، وأنا المرأة التي عشقت فوهبت عقلها لمن تعشق .. مسحت دموعي ورحت تخبرني بأنك تحبني .. تحبني .. أجل .. أنت تحبني .. شئت أم أبيت فأنت تحبني .. حبنا البعيد أقرب إليك من يدك التي تكتب بها .. حبنا يتنفس من يقينك به، يعيش على قوت كلماتك التي تأتيني على بساط السندباد .. فأبقى معي لأبقى أنثاك و عشقك السري وامرأتك المصاغة من مستحيل و بضعة حروف..

قرر العشق في ذلك اليوم التنحي عن عرشه والنزول إلى الأرض. لم يجرؤ على تركهما برفقة الوادي الكبير. خاف من سقوط آه جديدة فوق آهات من وقف ذات حكاية وبكى على مياه الوادي.

اعتلى غيمة وطلب منها أن تختصر المسافة بين السماء و أشبيلية. قارب النجاة كان ينتظر قرب الوادي وصول العشق ليبحر وراء الآهات؟ لم يكن رب العشق ليتحمل مسؤولية ما قد يحدث لمن وقعوا في فخه ولم يعرفوا النجاة.

شوراع أشبيلية كانت تحفظ وقع الخطى، تنقشها على حجارتها ليوم فراق.ا لفراق هو النهاية، لم تخطئ النبوءة يوماً، ولم يخطئ الوجع الهدف، في القلب تماماً، بين التنهيدة والتنهيدة، تحكم النهايات الموجعة نفسها على قارعة رحيل، ومفرق ذاكرة.

كانت تنظر إليه وهو يكتب مقالته اليومية في تلك الجريدة اللندنية. التزمت الصمت وهي تسمع ضجيج الكلمات الخارج من وقع أصابعه على اللابتوب، حاول أن تضبط دقات قلبها، لا تريد لحبيبها أن يتوه في حبها أكثر. بين الحرف والحرف يتأملها، آلهة الحرف التي انشقت عن دين الحرف لتتبع دين العشق فهوت.

يمد يده، تلتقطها، بكل متاهات الروح تلتقطها. يُجلسها على حضنه بعد أن يضع اللابتوب على الطاولة. يبتلع دموعها الصامتة بكبرياء ويقبلها، يشعر بقلبه التعب من حبها، يتنهد.

آه حبيبتي كم أحبكِ

اكتب اسمي في مقالتك، دوني اسماً في سطور، ولن أطلب المزيد..

لا يعلق على ما قالته، يضع رأسها على صدره ويلاعب شعرها وصوت العشق الزيدوني يرتل بصوت العاشق الأموي قصائد العشق المعذب على مقربة من الحكاية.

عدني أن تكتب اسمي.

أعدك،

الحروف في المقالة تتطلع لبعضها، تعرف كيف تحفظ السر و تداري اسمها لحين نشر العدد.، هيا لنزور الوادي الكبير، يقولها بينما تمسح بشفتيها دموعه ويمضيان.

مترعان بالعشق وصلاه، يتلمسان بركته، يناشدان نسائمه أن تقترب من أنفاسهما عربون زيارة.

كان يضمها بحزن، يعرف أن الصبح آت والنهاية المنسية تنتظر وراء الفجر. يطوفان حول الوادي الكبير، فيولون باخ كان يعزف لهما المقطوعة نفسها التي احتضنت الكلمات في مهد الولادة.

إشبيلية في تلك الليلة كانت مسرحاً أخيرا للفصل الأخير من الحكاية، سمعت ما لم يقل، البوح كان على ضفاف الوادي الكبير وشوشة القلب إلى القلب:

أدخلني معبدكَ وأحكم الإغلاق.

وهل بات مفتاح الخروج في متناول اليد أيتها الحبيبة!

سأكتب حين أعود إلى دمشق قصتنا، لن أتركَ تفصيلاً من دون تدوين.

وكيف ستكتبين النهاية؟

سأترك البطلة تخرج عن طاعة المنطق وتتبع شياطين العشق

وماذا سيفعلْ البطل؟

أنت من عليه أن يقول!

تجول عيناه في مياه الوادي، يحاول ألا يرتمي في حضنها في أكمل صورة للضعف، يشدها إلى صدره ويهمس في عتمة الوادي:

سيعود إلى باريس، لن يتحمل غيابها، سيسارع إلى الكومبيوتر ويكتب لها: انتظريني أمام ياسمينة الشام، هناك في البيت العتيق

تتوقف كل الأصوات التي تحيط الوادي الكبير، تأخذ نفساً طويلاً وتنتظر، تريد للوشوشة أن تمارس بوحها أكثر وتكشف خاتمة الحكاية:

و هل سيرسلها؟

سيتردد بعد أن يكتب الرسالة، سيضع يده على زر "send" ويقول بخوف وعشق: أضغط أو لا أضغط، سيناور العقل البارد سيحاور، سيلتف يمينا ويساراً، سيحاصره قلب متيم يريد سجن عشق ربياه معاً كطفل ينتظره الكون كله، ولكن الطفل سيخرج ويشير للعقل المجرد بالابتعاد، ويضغط الزر يا معشـــوقتي الأسطورية..

الفصل الثاني عشر:

ما زالت معه، جسده العاري في نهارهما الأخير يقول ذلك، تمرر أصابعها فوق صدره، فتتنهد، يلسعها ذلك الإحساس بوجودها معه في السرير نفسه، في حضن صباح اشبيلي يتثاءب على مقربة من شرفة معلقة بين دمشق والأندلس.

تعد كم شامة طرزتها فلسطين في جسده قبل أن تجهضه مرغمة من رحمها فتخطئ بالعد. مع كل شامة تشتعل ذاكرتها، صور تأتيها وصور تبكيها وهي تراجع خريطة الوطن المنسوج في جلده إلى ما لانهاية.

وطنه المنقوش على مسامات الجسد المشرف على الرحيل يتنهد، وجعه لا يشبه إلا وجعها، تتبادل ووطنه تنهيدة رحيل. يتنفسان من آخر صبح مؤونة لغد قريب ويتابعان العد التنازلي للنهاية.

لم ينزعوا عن جسده شامة الزيتون والليمون وحروف درويش. نسوا في عز نشوتهم أخذها. المنفى لم يحرق كرمة العنب، راحت البيادر وبقى الخمر في أقبية الذاكرة.

أمهاتهم روت الحكاية، لم تنس رصاصة ولم تخن آه تركتها الحقيقة في مفاتيح مكان كان اسمه وطن.

تتأمله وهو نائم: "كم أحبه» تأخذ رائحته شهيق صبح أخير وتتنهد، مشنقة الرحيل لم تشد بعد، والعشق ما زال يماطل موعد الغياب.

تترك السرير وتقصد الحمام حافية القدمين، برهان جديد على أنها معه، تلمس بقدميها سجاد الغرفة. تغسل وجهها وأسنانها وتعود إليه. لم تكن تملك المزيد من الوقت لتنظر إلى وجهها في المرآة. تلقي نظرة سريعة على فرشاة أسنانه وعطره وتعود إليه بشهية من يريد الحياة وبينه وبين الموت ساعات قليلة.

* * *

تقترب من شفتيه على عجلة اللهفة، تلتقط أنفاسه، تشمها بكل ما أوتيت من رغبة وتعاود الحزن على فراقه..

إحساسها به كان غريباً، شهوتها تستعجلها، شفتاها توقظانه، يشعر بدموعها فلا يفتح عينيه. فتيل القبلة يشتعل، وهمس الحزن يتحول إلى نحيب فراق تمارس الشفاه في ظله طقس وداع.

أحقاً سنرحل؟

يفتح عينيه على مهل، ينظر إلى عينيها المتوسلتين «أن خذني معك». يتجاهل ما يقرأه ويضمها إلى صدره خوفاً من أن يضعف وينهار.

لم يكن السرير ليصلح إلا لهكذا عاشقين، في الهوى، يذوب الجسد في الجسد، يتغلغل في مسامات الآخر، فيصبح الاثنين واحد، والواحد روح سابحة في أثير اللحظة.

دموعها تبلل وجهه، تستنجد به، ترجو الحكاية التي سطرها أن

تغير وجهة الرحلة، ومع ذلك لم ينطق بحرف رحمة. يقلبها على ظهرها، يحممها بعيونه، يتأمل العشق الساكن جسداً موشكاً على الاختفاء: يسقط بشفتيه قميص نومها البني المصنوع من الساتان، فتشعر بجلدها يتمزق بين شفاه تجيد فن الإشعال. كانت تشعر بنفسها وهي تخرج من بوابات جلدها، إحساس الخروج البطيء من أزقة الجسد يطلق شرارات نار يخجل منها ضياء الصبح. يترك شفتيه تبصمان على أكثر أماكن الحمم الخامدة انتظاراً، فتخرج الآه بحرقة لم تألفها ليالهما الأربعة حين دخلا الأندلس في غفلة عن السماء. يخنق بكاؤه ويلامسها كجناحي فراشة، فيسمع التنهيدة من جديد ترتل جنّاز حب خلق ليموت..

وراء ستائر الأندلس يقف عمر الخيام منصتاً إلى صوت الإله يردد في آذانهما أنهما الحقيقة في زحمة التيه، لم يعد يخشى سوء الفهم بعد أن كف أبطال الحكايات عن الخوف من تأويل السماء.

يقبلها بمرارة، يتذوق طعم الشفاه التي تذوقها أول مرة في دمشق ، حين كانت القبل غيوم الحكاية تنهمر على زهر لوز درويش لدى صدوره الأول ولقائهما الثاني.. تتحرك في دواخله رغبات مجنونة بالبقاء معها. كانا يلملمان بقايا الرحلة في أسوأ توقيت للرحيل. التنهيدة لم تكن تتكئ على صوت، لا الكلمات تجدي، ولا الأنين يغير قدر اللقاء، وحدها الأهات المخنوقة كانت الصوت الذي تصغي إليه غرفة الفندق بكثير من الإمعان.

كان يشدها وكانت تشده وكان الهوى يشدهما معاً جنوب الفراق، غرب الذاكرة المحملة بالتفاصيل..

جسده يحتويها كلؤلؤة، يحتضن آهاتها، يعلق على أحلامها

صورته الأخيرة. كانا يجهلان سر هذا التحليق في سماء يعلوها سقف بعيد.. أهي طبقات الحب العميقة نكتشفها واحدة إثر الأخرى، أم هو الشعور بأننا نمارس حقيقتنا التي لا نكتشفها إلا على أسرة العشق، هناك حيث ينفلت قيد الآه المعقود منذ الأزل، وتتحرر منا شهواتنا المغّيبة، وتتلمس أجسادنا طرق متعتها في ظل ضوء خافت يخرج من دهاليز مظلمة، فنعبرها ونحن نسقي أنفسنا من اشتهاء أزلي لنرتوي، فلا نرتوي. أجسادنا مع من نحب تعيش في حالة ظمأ، فيصعب إرضاؤها ويصعب عليها إرضاؤنا.

تفتح عينيها وتسرح بملامح وجهه المتوحدة مع جنون اللحظة، كانت تتلذذ برؤيته يقبلها، يستنشقها ويطلقها مع زفير الخوف. يفتح عينيه على غير عادته: أحبكِ، يقولها ويعاود إغلاق عينيه، كان يسبح في عتمته لا خجلاً من الضوء، بل جنوحاً إلى العتمة وما تنثره من نور.

لم تقو شهوتها على دموعها ولم تتغلب متعتها على يقينها بأنه راحل. كانت تعشقه في وضح النهار كما عشقته في عتمة الليل. العشق لم يخيب ظنها، كانت تعرف أنها محترقة لا محالة، فلقاء سابح في ملكوت الأندلس لن يمر من دون ندوب، ولكنها مع ذلك أقبلت عليه بكل ما تملكه الفراشة من جنون، حين تقرر الانتحار على ضوء قنديل.

* * *

كانت تعرف حين قطعت حدود الكون أن الجسد في العشق هو أبسط القرابين، لهذا أقبلت على نهايتها غير آبهة بصلبان الذاكرة، لم يكن بإمكانها بعد أن تُسكت نداء قلبها وجسدها رغم المنطق. قانون

الحب هو القانون الوحيد الذي لا يتفق مع المنطق بحكم واحد، ومع ذلك اتخذته مّشرعاً لحكاية وناموساً لسيناريو أندلس من غير الممكن أن يُكتب مرتين.

لم ينته مشهد التعميد كما اعتاد أن ينتهي، لم ينس، لم تخنه ذاكراته، لم يخالف وصية العقل، كل ما أراده أن يترك بعضاً منه في رحمها، لماذا؟ لم يكن يملك الجواب في ذلك الصباح بالذات.

تلاشى الحرف من شفتيها وهو يستودع دمشق أمانة من فلسطين.

ارتبك الكون، غط في تأمل طويل، توقف عن تثاؤبات الصبح وراح يعد على أصابعه الزمن المتبقي للصوت..

كان يبكي عجزه وحبه المصاب بفاجعة النهاية، وكانت تشده إليها خوفاً من لحظة فراق. الزمن دائماً يعبر من فوق التنهيدة مصراً على العبور، والآه الواقفة بين ضفتي الشفاه تتابع لملمة آخر قطرات الشبق المغمس برحيق العشق المصفى.

لم يجرؤ على النظر إليها ولم تملك القوة للنهوض. ما زال رأسه على صدرها يستنشق أنفاس العشق وأنفاس الحياة. تستغيث لتقول شيء، أي شيء يخرجها من صدمة ما حدث وروعة ما قد يحدث لو بقيت معه دون فراق. كم تمنت أن يتجمد الكون على ذلك المشهد، لكن الكون لن يتجمد والأرض مستمرة في دورانها وموعد إقلاع الطائرة بعد ثلاث ساعات.

* * *

غادر السرير ليستحم، لم يلتفت إليها، يخجل من النظر في

عين ذلك النهار الممدد قربها، تركها مستحمة بعطره وراح يستحم بدموعه وعجزه و. . . . .

تتأمل الغرفة بكل تفاصيلها، سريرها الصغير، نافذتها الوحيدة المطلة على حارة اشبيلية، الطاولة التي يضع عليها جهاز «اللابتوب»، حقائب اللقاء الذي خاطه الكون منذ أول حرف مارساه معاً على بياض التوقعات. تترك السرير، ترتدي أحد قمصانه وتقترب من حقيبته، فترى قمصانه وملابسه الداخلية، تقترب منها، تشمها، تأخذ نفساً عميقاً وهي تلمس أشياءه. تشعر بالعجز وقلة الحيلة وهي تترك أشياءه تّرحل إلى بيت امرأة أخرى.

ألا تريدين الاستحمام؟

يفاجئها سؤاله وهو يعانقها من الخلف.

لا أريد أن أغتسل منك.

يشدها إلى جسده المخنوق بغصة اشتهاء. كم أراد قول ما يقفز على لسانه من تمنيات. كان يحترق للسجود أمام من دأب على التغني بوصفها «إلهتي الأنثى». ولكنه لم يسجد، كأنما كان يتشبث ببعض مقاومة وبعضاً من جرعة تعقل، تشرف على النفاذ. .

* * *

بانتظار التاكسي راحا يقلبان مجلات إسبانية. عيناهما كانتا تلتقيان في بهو الفندق كغريبين يؤديان فروض عزاء.

يحضر برتقالة ويقشرها «أحب البرتقال كثيراً»، «وأنا أحبكَ أكثر». يمسك يدها ويقبلها، فيترك عليها رائحة البرتقال والرحيل. لم يكن لينقصها أن تخزن رائحة جديدة في مساماتها، كفاها منه ما

أخذت. لم يسعفهما الكلام، ففعل النطق في حضرة الفراق يبدو متواضعاً إلى حد محزن. كانا ينظران إلى كل شيء في الفندق، بوابته، صالة استقباله، موظفوه ، سجاده، نزلاء الفندق الوافدين والمغادرين ، من دون أن يجرؤا على النظر في عيون بعضهما. تعلما منذ زمن كيف يماطلان ارتداء الحداد على الحكاية، الفراق يعرف كيف يحقن ضحاياه بجرعة مخدر قبل أن يحين الوقت المحدد للخروج من صومعة اللقاء إلى صومعة الحزن الواقف عند بوابة الرحيل.

وضعت رأسها على كتفه في التاكسي. لم يكن من الصعب على دمشق منذ أربعة أيام أن تتكهن بأن المرأة التي عبرت مطارها لن تعود هي نفسها. في الأفق إشارات تنبئ بهلاك من تجرأ و دخل محرقة الحب، ما من مجنون دخل المحرقة ونجا، الحب يعجّل نهاياتنا ويحّضر شياطينه حتى تسكننا إلى آخر نَفس.

يمر في رأسه شريط الأندلس من أول ليلة إلى آخر نهار، تشعله الصور، تدغدغ جسده حد الرغبة بالتأوه.

قبلني، لا تتركني لحظة خارجك.

يرفع رأسها على مهل، يصب ما تبقى من شهوات في شفتيها محتضناً الآه الخارجة من صدره وصدرها. لم يسترق سائق التاكسي النظر إليهما، في أشبيلية يملك العشاق حصانة لا يقربها أحد. صوت الخوف من الآتي يدق نوافذ السيارة، يوقظهما من نشوة العشق الذي أخذ من الشفاه موطناً.

أحبكَ.

لم يخبرها هو كم يحبها. كان يستنشقها مع نسمات الصبح

ويودعها في أبعد ركن من أركانِ الروح حيث لا مجال للزمن بالاقتراب أو الخدش.

يتجهان إلى المطار بخطوات لا تعرف وجهتها. العودة إلى الأندلس مستحيلة والرجوع إلى ما قبلها من دون ذاكرة مستحيل آخر.

تشد على يده ونحيب القلب يتصاعد مع رائحة العبور المتصاعدة من مسامات أجساد أتعبها العشق.

يسلمان الحقائب ويتجهان إلى طائرة اشبيلية- باريس حيث يسكن. لم يكن من الممكن أن تحجز رحلة مباشرة من اشبيلية إلى دمشق. كأنما اختصار الزمن فعل لا يليق بالعشق، كانت تلهث لعناق آخر في باريس، وبعدها لتعتلي غيمة الفراق من جديد عائدة إلى دمشق.

ما زالت أمامنا ساعتان.

بل أكثر.

يفاجئها برده، فتسأله:

كيف؟

يهمس لها :

لم أرتو بعد من شفاهك....

وزوجتك!

التوق مثل الطوق، يشدني، يخذل قوتي أمامكِ

ما زلتَ تجيد فن المقاومة

باريس لن تقبلك عابرة.

ولكني عابرة.

يضمها، تملأ قميصه بكحلها:

سأبقى معك. .لن أتركك تبكين الفراق وحدك.

تقبله ودموعها تبلل وجهه.

أمامنا بضع ساعات من الحب، فلا تبكي حبيبتي.

خذني إلى بيتك، إلى جوار بيتك، أريد أن أراه ولو من بعيد.

يضمها من جديد :

كم تجيدين قراءتي.

صوت زفيرها يخرج مع كلماتها وهي تضمه، «أمامنا أربع ساعات»، غمرتها الفكرة حتى كادت تنسى أنها مجرد أربع ساعات لا أربعة أيام. . مشيا إلى الطائرة وذراعها تحاوطان خاصرته، فرحها كان يرقص أمامها ووراءها . .

«أحبك»

«أحبك»

«أحبك»

لم تكترث بالمسافرين وهي ترفع صوتها، حبها كان يحتفل ببقائها في كوكبه ولو لساعات قليلة. تاريخ بني أمية سيضيف أسميهما إلى قائمة العشاق الذين مروا من مدن تحرق من يجرؤ على دخولها. إنها مدن الحب التي يخال للعاشق أن الرب صنعها لهكذا حكايات، ففي الكون دائماً أشياء مسبقة الصنع معدة خصيصاً للحب، أماكن، شوارع، حارات، حجارة، مفارق طرق، وديان كوادي أشبيلية الكبير الذي حفر على حافاته الحجرية حروف أسماء لم تعرف عرافات العشاق التكهن بمصيرها.

كيف هان علينا الوادي الكبير؟ أتراه ينتظرنا الآن، يلتفت يمنة ويسرة على طول ضفتيه عساه يرانا نعود إليه لليلة أخرى، لمشوار آخر نزرع على أرصفته حكاية حبنا المستحيلة.

أتراها شوارعه القديمة تلهث لرائحة خطواتنا المصبوغة بالعشق. مقاهيه المرمية بعبث على جانبيه تتساءل: أين أولئك العاشقين، ألم يتعبا من السير في أشبيلية؟ رواد المقاهي ينتظروننا، يشتاقون إلى صوت ضحكاتنا وصوت حبنا وصوت فرحنا المغمس بوجع الرحيل الواقف وراء باب الفجر. أتراهم ينتظرون عودتنا ليلقوا علينا تحية ليل لا ينام؟ ذلك الغرسون الأحمق، أتراه ينتظرنا بخجل. أيقول لصاحبه: «يا ليتني أعطيتهما طاولة». لا تحاول أيها الغرسون، لن نعود إليك، ستبقى طاولاتك لعامة العشاق، أما نحن فلا طاولة لدينا.. عشقنا لا يحتاج إلى طاولة حتى يطول بنا الليل، ألم ترانا كيف استغنينا عن طاولتك وجلست في حضنه أضمه على مرآى الليل والوادي وسياح أشبيلية؟ ألم تره كيف أسند ظهره على تلك الحافة الحجرية وتحتنا الوادي الكبير يبارك حبنا وليلتنا الأخيرة، يسمع صوتنا السابح في مياهه ليسجل مع كل نسمة هواء صيفية تذكار ليلة قلنا فيها كل شيء وخفنا أن نقول كل شيء. كنت تنظر إلي وتحبني . وكنت أنظر إليك وأحبك. وكانت السماء تنظر إلينا وتشفق علينا من صباح الغد.

ما هذا الصوت؟

صوت المارة

صوت العائدين إلى بيوتهم..

سائق التاكسي يتوقف لنا دون غيرنا. قلبه يحن علينا من السير ساعات طويلة.ها أنا أضع رأسي على كتفك. كم أشعر بالأمان معك. يتوقف التاكسي. ننزل.ندخل مصعد بيتنا. كم صارت لنا بيوتٌ في

الأندلس. نضغط على الرقم .2 ندخل غرفتك ونخلع عن أجسادنا تعب العشق. نضع رؤوسنا على تلك الوسادة. جسدك ملتصق بجسدي صوتك الطفولي يوشوشني «أنا تعبٌ هذه الليلة» لم أترككَ تكمل. جسدي كان مكتفيا بهذه الالتصاقة، عشقي لم يكن يجرؤ على الحلم بأكثر من ليلة أخيرة على وسادتك قبل أن تشاركها معها.

أخبرتك أني تعبة أيضاً، وكنت تعبة حقاً. لم أكذب عليك، عشقنا لم يكن بحاجة إلى جسدينا لنمضي معا ليلة أخيرة. أشبيلية لم تكن تنتظر تأوهات جسدينا لتعرف أننا متألمين، ها نحن نودعها منهكين من حبها، ها نحن نودعها بهدوء الرحيل وصمت الوجع العاجز.

غفونا بلا كلمة، بلا حرف ، حتى بلا عمت مساءاً أيها الرحيل . رأسي قرب رأسك، جسدي ملامس لجسدك، ومع ذلك غفونا، مع ذلك رحنا بنوم طويل ونحن نعرف أنها الفرصة الأخيرة لليلة أخيرة.غفونا بلا طمع ولا جشع ولا تحصيل سريع لضريبة لقاءنا مع المستحيل، غفونا هكذا، بكل بساطة، كما يغفو العصفور في عش صغير وهو على يقين بأن بندقية الصياد تبتعد عنه مسافة نافذة، ومسافة ليل لم يبق منه إلا ساعات حتى يحين موعد الفاجعة.

* * *

شهوة حزينة تملأ مساماته، ساعات البقاء على ذمة العشق لم تكن منحة عاطفية لقلبها بقدر ما هي منحة عشق له.

يسألها أن تضع رأسها على كتفه، لا يريدها لحظة واحدة من دون التصاق.

هل انتهت الحكاية، تسأله وهمسها يصل السماء فيلامس السحب .

لم يهزمنا البعاد حبيبتي، لم تشغلنا الأسماء عن اسمينا، بقينا أنتِ وأنا بطلا الحكاية ، بطلا البداية التي لم تكن لتقبلنا عابري صدفة

أحبكَ أيها المستحيل الذي لم يبق منه إلا قليلاً من الحقيقة والكثير من الخيال

يتلعثم باسمها، يخنق في صوته كُلاما عصيا على البوح.

أحبكِ

تسمعها فتنتشل رأسها من كتفه. الصمت يعلن عجزه عن مواصلة العزف على قيثارة انتحارهما.

مشتاقةٌ إليكَ منذ الآن

يمسح دموعها مشفقاً على وجعه قبل وجعها:

لن يبخل رب العشق بمنحنا لقاءً جديداً

تبكي أكثر.

من قال له أنها تطمح ببعض اللقاءات، ميزان المنطق ما عاد له وجود في سيناريو حكايتها، باتت تريد المزيد، من أول قبلة شهدتها دمشق كانت تريد المزيد، من أول لمسة صلبت فيها شهواتها على جسده حلمت بالمزيد. فهل من يحمل وشم الأندلس سيقبل أن يتنازل عن حقه في أندلس الحب مدى الحياة؟

أغادر قلبك منكس الرأس مهزوماً، هي الهزيمة التي كنا موقنين بها، لكن التوقيت كان يتحايل علينا.

تقبله، تلملم من شفتيه بقايا حروف لم تكتمل.

سأحتفظ بما أكتنزته معكِ في قلبي، سأختمه بالشمع الأحمر

وأعلق على القفل وردة حمراء تنزف بدم هزيمة قرأناها وشعرنا بطعمها المرير أكثر من مرةرغم أنه من طعم زهر اللوز.

مرت المضيفة تسألهما إن كانا يريدان شيء، فطلب فنجان قهوة، لم يكن في نيتها تناول أي مشروب يلهي فمها عن فمه. كم يحب شقاوتها.

لم تتركه يشرب قهوته، قبلاتها كانت تشغله، احتسى شفتيها على مرآى الركاب والسحب والوداع الذي يعد ما تبقى من قُبل.

فكت حزام الأمان وراحت تعّدل من جلستها. طفولتها التي تهزم عقدها الثالث لم تكن لتضبط بحزام أمان، كلها لم تكن لتحجز تحت حزام، أنوثتها، عشقها، جنونها الذي يخشاه حد الرهبة، خرجا من تحت الحزام، لتعاود وضع رأسها على صدره من جديد.

الهوى كان يتفرج على ما آلا إليه من هوى، يتمتم في سره حزيناً:

ماذا فعلت بهما؟ كيف وصلا إلى هذا التيه؟

تتنفس رائحته بعمق ولا تبالي بما فعله الهوى بها.

تعرف أنها لن تبحث في لحظات الموت عن سر الخلق، إنه هو، ذاك الهوى الذي يهوي بنا في تيه الآخر فلا نعد نبغي غيره هوى..

أين سرحتِ؟

بكَ

عيناه اللتان فاض بريقهما عشقاً التهمتها.

«أحبها» قال لنفسه وقد اكتشف الآن وبعد بلوغه الأربعين،

وبعد تشرد على أرصفة الغربة متخبطاً بين فلسطينيته وحاجته لأرض وهوية، أن هذه المرأة هي توأم القدس التي يبحث عنها.

حضنته وهو يبكيها ويبكي وطنه .فوطنه وهي واحد، ملاذه الذي لا يملك مفتاحه كما كتبت له حين عاد إلى القدس يقتفي أثر أمه ليعتذر عن نكسه بالوعد والعودة.

يحضر وجه أمه الجميل ببشرته البيضاء النقية، رأها تبتسم له، تطبطب على ظهره كما كانت تفعل حين تعثر على ضياعه في أطراف المخيم ، فتضمه إليها وتخبره أنه «علينا أن نقبل القدر حتى يقبلنا».

كثيراً ما بحث عنها في وجوه النساء الكثيرات اللواتي مر بمرافئهن بلا فائدة، وجهها كان صعب التقليد، بشرتها البيضاء كانت بعيدة المنال تماماً كما هي فلسطين.

أمي

يناديها فتسمعه، أنفاسها تحرك ستائراً من ذاكرته فيعانقها على مفرق الموت الذي أخذها قبل عودتها إلى فلسطين.

أمي، فلسطين، أية كلمات أوجع من هاتين الكلمتين تسقطان من القدس على غيمة عابرة تشق طريقاً من طرق الحزن على ما لا يمكن استعادته.

يبكي على يديها، يستحضر الوطن والأم والساعات المقبلة، يهمس حزنه لحزنها «يا فضيحة رجولتي»، فتشاركه النحيب على مسمع الكون .

لا تصرخ وتقول يا فضيحة رجولتي أيها المعتق بدمع وطن هو لكم شاء لصوص الحقيقة أم أبوا.

لا تلملم فضيحة بكائك وأنت التائه في أرصفة مطارات لم تشفك لليوم من كابوس العودة.بكاؤك عطر عشق استحم به ساعة حضورك ليكون معي بعد حين.فاتركنِ اغتسل به من سنوات ثلاثين لم أكنها معك.. أترى قد تكون أمامي فرصة ولادة جديدة؟

آه عميقة تخرج من شقوق روحه المعذبة، فتتدفق من عينيها شلالات من البكاء تتهاوى متهاكلة على صدره من شدة الألم.

يغمض عينيه ويركض إلى أمه وفي يده شهادته التي ماتت قبل أن تزغرد وتسقي جاراتها نخب انتصار الخيمة على الدبابة.

* * *

يحطان حقائب العودة على أرض المطار. رحلة الشغف أعلنت نهاية الغيبوبة في صباح نفذ قنديله من الضوء.

جوازات سفرهما المختلفة تحتم عليهما الابتعاد كلٌ إلى مكان. جنسيته الفرنسية تنتشله من عبء انتظار طويل. وجنسيتها العربية تلزمها الوقوف في طابور أناس اللون الآخر والعرق الآخر. ينظر إليها من الضفة الأخرى حال حكايتهما دوماً، يبتسم لها وأمه تطبطب على ظهره حزينة على مرساة القلب التي تأخر نزولها.

أنهى قبلتها المحمومة بناره، أخبرها بضرورة أخذ الحيطة فقد يصادف بعضاً من معارفه في المطار. أنصتت إلى كلماته دونما تعليق. ابتعدت عنه مسافة خطوتين وفي قلبها ما زالت شياطين العشق تعربد.

فكرة البيت الذي ستراه تحرق مخيلتها وتجعلها لا تصدق أنها في مدينته وعلى بعد نصف ساعة تقريباً من المكان الذي لن تدخله، ولكنها على الأقل ستراه. . . .

انتظرته على رصيف «الترمينال 3» بينما راح يحضر سيارته التي تركها في المطار. أشعلت سيجارة لتحرق دقائق اللهفة. السماء كانت مشرقة في ذلك النهار كما لم تشرق من قبل. الكون كان يعرف أن اليوم سيكون مختلفاً إلى أقصى حدود الاختلاف، لهذا جهز الشمس والضوء؟ بعناق مرتقب تحت سماء تنتظر.

في داخل السيارة راح يلقي نظرة سريعة على المقاعد، لا يريد أن تقع عينا حبيبته على أشياء زوجته. كان يخشى عليها من الغيرة، فكفاه قلبها الحزين حزناً. وقع شال زوجته في يده، أخفاه باضطراب في حقيبة السيارة ومضى إليها يسابق مع دقات قلبه.

تفضلي.

قالها باستحياء يوازيه خجلها.

جلست إلى جانبه وجسمها يرتجف. حالة من الحسرة سكنتها وهي تتخيل زوجته إلى جانبه. جلست منكمشة على نفسها وراحت تتأمل ارتباكه بارتباك أكبر..

الساعات القليلة المتبقية كانت تحوم بظلها الحزين على لقائهما دون أن تحسب حساب الفاجعة المنتظرة على رصيف الرحيل. صمت الخجل والارتباك كان الصوت الوحيد الذي يزيد في غربتها مع أنها معه، قربه، بينهما مسافة لحظة. تسأله أن يضع كاسيت، لماذا لا تعرف، ربما لأنها أرادت أن تسمع صوتاً يسحبها من أصوات تعج في داخلها. بأقل من الثانية شغل الكاسيت الذي كان موجوداً بالأصل، فسمعت مطرباً من الثمانينات يغني، سألته: «أما زلت تسمع عازار حبيب».

لا. إنها غالية.

إحساس بشع ينتابها. اسم زوجته وضعها على عتبة الحقيقة: إنها أمام تلك المرأة مجرد وهم، وبأحسن الحالات مجرد عاشقة تعيسة.

لم تتحمل صوت مطرب زوجته المفضل «أرجوك أوقف هذا الصوت»، كانت تريد وقف صوت الأخرى وقطعه عن ساعتيها الأخيرتين معه. تريده الآن رجلاً بلا ماض ولا زوجة ستشاركه الليلة سريره وأنفاسه. «لو كنت مكانها لما كان هذا الشريط في السيارة». يأتيها صوت أزنافور، فيشحن أنفاسها ببعض من شجن. آهٍ من أزنافور ومنه: أهناك أحلى من هذين الرجلين!

يمسك يدها ليخلصها من أحاسيس كان يقرأها في جلستها وحركة يديها ونظراتها المرتبكة، فيشعر بقشعريرة من ارتباكها.

لا أصدق أني معك في سيارتك وفي باريس.

كل شيء بات معقولاً بعد الأندلس.

يشدها إلى صدره ولكنه فجأة يوقف شهوته. قبلته التي كانت في طريقها إلى شفاه حبيبته بقيت مكانها. لم تسأله عن السبب، كانت تعرف كل شيء.

في جادة 14 أوقف سيارته على بعد خطوات قليلة من بيته.

أين هو؟

يشير إلى الطابق الثاني في البناية المجاورة.

تنظر إلى شرفة البيت الملآى بزهور ملونة، تتخيل زوجته وهي تقوم بسقيتها صباحاً، فتختنق صوت البكاء في حنجرتها. ستارة

بيضاء تلفت انتباهها تغطي نافذة كبيرة. «أتكون غرفتها، غرفتهما» لا تسأله، كم تحب الستائر وكم تحبه. تتأمل بيته وتغوص في أعماق الحزن وحبيبها صامت لا يتكلم.

«يا ليتني ما رأيت بيتك وما وقفت على بعد المستحيل أتأمل الجنة المحرمة التي لن أدخلها وأنا العاصية العاشقة..

إثم الحب يقطر من مسامي، ذنب عشقنا يطوقني بسوط من شوك..

كنت وجنتك في لحظة خجل، بيتك طأطأ رأسه لأن بابه لم يفتح لي. بابه الذي كان ينتظر من عشقنا كلمة إذن وترخيص دخول بقي مغلقاً، لأدخل معه في لحظة تعارف خجولة نشرت بيننا ومنذ النظرة الأولى بساطاً من الممنوعات..

كان يرمقني بعين الخجل العاجز المغلوب على أمره، وكنت أتوسل إليه أن افتح لي يا بيته بابك، أريد أن أدخلك، أن ألمس قبضة الباب التي يلمسها حبيبي، وأمشي بقدمي على بلاطك الذي يشم رائحة عودته كل ليلة، فأتعرف على شكل الجدران، أحفظ لونها وأئتمنها على حبي المار من ههنا. افتح لي يا بيته بابك، أريد أن أصل غرفتها على رؤوس أصابع الوجع فأعرف لون قميص نومها الذي ترتديه له ليلاً أم أنها تفضل النوم عارية مثله؟

آه يا بيته لو تفتح لي بابك لأصل غرفته، لأرى سريرها الذي تطارح فيه قهري على مرآك، اتركني أدخل دقيقة، دقيقة واحدة ستكفي لتعلق فيها رائحتي بستائر البيت، فتبقى حجة عشق وبصمة لامرأة مطرودة من الجنة.

* * *

سآخذك الآن إلى برج إيفل، أريد أن أقبلك أمامه.

تشد على يده. تتوسل للسماء حتى تهبها كارثة كونية فتبقى معه ولا تعود. السماء تسمعها ولا تستجيب. لا بوادر لكارثة في صيف باريس. يصلان البرج. .كل شيء في هذا الصباح يأتيها للمرة الأولى. يطلب منها النزول. يركضان من صفحات الحكاية: أبطال من ورق يرفضان السجن بين دفتي كتاب.

يوقفها فجأة:

أغمضي عينيك . .أريد أن أقبلك

تعرف أني لا أحب إغلاقهما.

يشدها إليه، فكرة أن يفتح عينيه وهو يقبلها تثيره. لم تكن من النوع الذي يستسلم بكامل وعيه لنشوة القبلة، كان يعرف في كل مرة يقبلها أنها ترقب تأوهاته قبل أن تسمعها، كثيراً ما وقعت عيناه في مصيدة عينيها فيزداد اشتعالاً. طقوسها في القُبل كانت تثيره ولكنه لم يكن ليتحمل مشاركتها بالتتبع الدقيق لآهات النشوة.

فتح عينيه وهو يقبلها ليباغتها، فرأى عينيها مغلقتين، لأول مرة تهرب من تتبع ألامه وهو يقبلها. تبادلا الأدوار من دون أن تدري. كان يرى دموعها تفيض حزناً بينما راحت تلتصق به كما لو كانت تحمل في جسدها شهوات الأرض والسماء.

تشابكت بينهما الأيدي والأرجل والشفاه والشهوات المستحيلة التي لم تعد ترى أمامها فرصة نشوة. كان يشعر بها منهكة من حبه، يشعر بلسعة تكمش أطرافه وهو يطرحها على العشب الأخضر فارداً معها النشوة على طول باريس وعرضها.

خمر العشق انسكب من شفتيه على جسدها المحكوم بالهزيمة

بعيداً عن رجل سيلملم خسارته ما أن تصعد طائرتها وتعود إلى بيت رجل آخر.

يعرف الآن وهو يغرق في حزنه أن الحب كما وصفته سيمون دي بوفوار «اللعبة الوحيدة التي يشترك فيها اثنان، إما ليكسبان معاً، أو يخسران معاً».

فتحت عينيها حين أطلق صوت نشوته عالياً فرأته ينظر إليها.

أكنت تراقب تنهداتي؟

يا ليتني لم أفوت متعة النظر إلى ملامح الآه طوال تلك الأيام..

إذاً تعالى نتنهد معاً، ونحترق على لهيب جنوننا.

شدها نحوه وراح يقبلها وكل ذرة من جسده تصرخ لهذه الأنثى أن تبقى ولا تنصت لصوت المنطق القادم من الشام.

كانا يسكران بخمر الشفاه ويدونان الآه نوتة.

أحبكِ، يقولها وهو ينظر في عينيها مباشرة، فتتدفق الآهات من شفاه خلقت للتلاقي وحوكمت بالحرمان.

يسيران باتجاه سيارته صامتين. يغزوهما الخيال، يصور لهما احتمال حياة لا تقوم إلا على موت آخرين.

من المستحيل أن يخرج العشق من ألوهيته ليتلبس ثياب البشر العاديين. كانت تعرف أن العشق خروج كامل عن النص، مفردات لا تشبه المفردات التي يقولها الناس العاديون، وطقوس من الوجع لا تمر في سماوات الناس العاديين، لهذا كانت تحضّر نفسها لمثل هكذا فراق. لم يكن أمامها إلا أن تقبل نهاية هذا اللقاء بكل

تراجيديته، فمِنح العشق أكبر بكثير من القربان الذي سيكلفها حياتها، وهذا يكفيها لتمضي ما تبقى من معاناة على بصيص الضوء القادم من أزقة غرناطة وأشبيلية وأسرتها.

* * *

الكلام كان أبكم. رياحين الفراق موزعة بحرفية متقنة على أرصفة باريس. لم يبخل الكون بوضع لمسات الوجع على آخر أنفاس اللقاء. كانا صامتين، جنازة الحكاية تقطع الشوارع بهدوء يليق برهبة الموت وانشقاق اللقاء نصفين، نصف في دمشق مدينة القبلة الأولى، وآخر في باريس، مدينة القبلة الأخيرة.

يصلان نهر السين، يأخذها ويمضي حيث الزمن يحضر مأتماً أخيراً لعناق أخير. اليوم يوم الجنازات، والكون لم يقصر بزرع المدينة أكاليل وداع..

تمشي ورأسها على صدره، لا تريد أن ترى شيئاً وهي غارقة في أنفاسه. توقف فجأة، رفع بصرها إليه وراح يعلن انهياره الكامل أمام دموعها.

لم يكن ليتردد وهو الذي قد يتعرف عليه بائعو الكتب المقيمين على هذه الضفاف من الوقوف وتقبيلها مغمساً بدموعه وعجزه، كل قبلة كانت تمنحه يقيناً جديداً بأنه يحبها، ويتمناها، ويشتهيها دوناً عن كل نساء الكون.

ألا تخاف الناس؟

يقبلها بحرقة العشق ثانية، فتدوخ ويدوخ على صوت الأكورديون العابر ضفاف السين.

أحبكَ.

لا تتكلمي، أريدك الآن بلا صوت، يكفيني صوت أنفاسك تنهش شهوتي العاجزة عن التوقف في حضرتك يا سيدة قلبي.

لا تملك اللحظة لتجيب. تسمعه يئن حباً ولكنه لا يتكلم، صورة ابنته الفرحة بقدومه تمزق قلبه المُسلّم لهذه المرأة رغماً عنه.

يفيقان من نشوة تلك القبلة الطويلة. يتصل بسائق تاكسي ليأخذها مباشرة إلى المطار. ساعات اللقاء انتهت، ومملكة العشق تعلن إغلاق فصل الحكاية ما قبل الأخير.

هل سأرحل الآن.

الآن.

وأعود امرأة الغياب.

لم ينطق.

لو تعرف تلك المرأة التي تسكن رحم الغياب، أنها بغيابها تحضر أكثر، الشوق يحضرها كل صبح إلى فراشه مستحمة بندى العشق، متأبطة ذراع الشهوة.

تفرد قامة الحضور وعطرها ينتشر في غرفة نومه. العالم في تلك اللحظات يتمطى على رائحة كونية مختلفة اصطحبتها معها إلى سريره لتنهضه بشذى قبلة وموعد اختفاء.

صمتها الذي يتنفس مرارة الرحيل بين تقطعات الصوت الحزين يؤلمه أكثر. يخنق في حنجرته صوته خشية من أن يسقط منه حرف يطالبها بالبقاء لصبح آخر يغرسانه في صدر المستحيل.

كان عليه أن يودعها، مماطلة الرحيل لن تلغي حجزها في تلك الطائرة، يتوسل للصوت أن يشحذ قواه حتى لا ينهار أمام دموع عشقها:

حبيبتي، لنواجه قدر الحب بقبلة وعد، رب العشق لن يتركنا نتمزق في حارات الانتظار.

ترد عليه بصمت يعلقها على مشارف الوداع. لن يتمكن من مرافقتها إلى الهاوية. تسأله: «ومن قال أني أريد الرحيل».

حبيبتي. ستعودين. أعرف أنك ستعودين.

يمسك وجهها الحزين، يقبلها بقوة لم يقبلها بها من قبل. يريد أن يدرك هذا الرجل أنه يعشق امرأة حقيقية. يشدها إليه ويهمس أنه يحبها، ينتظر جوابها، فلا يسمعه، يخشى ألا تكون حقيقة، فيشعر بدموعها على خديه، يتأكد من أنها ليست وهماً ولا خيالاً. إنها امرأته السرية، جاءت الأندلس لتوفي بوعد قطعته على حروف أنبتت ما هما عليه من حب ووجع، فتركت كل شيء وراءها في دمشق لتنبش حكايا العشق من مقابر بني أمية، أجدادها الذين عرفوا من زمان بعيد عام أن امرأة من دمشق ستغرم برجل من القدس تحت قنديل مستحيل مكسور.

وصلت التاكسي ليسدل اللقاء ستارة النهاية على فصل حار بمذاق العشق الملتهب. كانت تنظر إليه وهو يتكلم مع سائق التاكسي مصراً على التعامل مع مشهد الوداع بصلابة مزيفة. يرن هاتفه فلا يجيب. زوجته ستلتقط صوته الذي سيشي به دون شك. يضع حقيبتها في السيارة على عجل، يحاسب السائق، ويلقي عليها نظرة حب ووداع.

إلى اللقاء حبيبتي. الوادي الكبير ينتظر رجوعنا.

لا تجيب، تدخل السيارة وتنظر إليه وهو يحاول افتعال ابتسامة. .صوت بكاؤهه يرتفع والسائق يتلصص عليها من مرآته

الصغيرة. لا يحتاج المشهد إلى كثير من الذكاء ليعرف أنه جزء من فصل فراق. يتصل بها:

اشتقت إليكِ.

نبرته كانت تكشف عجزه عن التعافي. لم تقوى على قول كلمة، كانت تنصت إلى جوقة تراتيل الفراق تنشد آخر ما ألفه العشق من سيمفونيات. يغيب صوته مع آخر «أحبكِ» تسمعها، تنهي المكالمة بكبسة زر وحقيبة سفر وفاجعة غياب.

في المطار تقصد الكافتريا لتحتسي فنجان قهوة. تخرج أوراقها وتكتب اسمه. تستمتع باسمه يزين أوراقها بهذه الحرية وبهذا اللاخوف. تكتبه ثانية وثالثة، ثم تضع رأسها على الطاولة وتغرق في البكاء.

* * *

كنتُ على وشك الاتصال بكِ.

كذبة جديدة يخبرها لزوجته التي عاودت الاتصال به أكثر من مرة. صوته الذي يحاول أن يتماسك قليلاً يختصر المكالمة وينهيها ببضع كلمات. يخشى أن يتلفظ باسم حبيبته بدل اسم زوجته التي لن تراه حتى العاشرة مساءً. كان سعيداً بتأخر عودتها إلى البيت، أمامه متسع من الوقت ليستحم من حبيبته. يتفحص سيارته هذه المرة بحثاً عن آثارها. يتنهد وهو يتذكرها قربه تحاول خجلى أن تضع يدها فوق يده. يقطع شوارع باريس بروح مختلفة. منذ دقائق كانت تلك المحبوبة تملأ المدينة بحضورها المشع، ولكنها ما زالت في مطار باريس. كم تبهره هذه الحقيقة.

ما أصعب الفراق وما أغربنا، وما أسرع أن نهزم! ولكننا رغم ما حدث نملك بليل حب رسم قوساً كاملا في سماء الكون ذاهبا وآيبا

بالقبل من مطار إلى مطار ، إنه قوس نصرنا الأبدي، من تحته تمر جيوش العشق ... فإن كنا هنا أو متنا هناك، نكون على الأقل قد أنجزنا مستحيلنا الصغير الكبير، رسمنا محراب قوس نصر الحب من مطار إلى مطار ومن مدينة إلى مدينة ومن حلم إلى تنهيدة.

أحبها. يقولها وهو يبكي، يلتفت إلى يمينه ويساره، فيتأكد أن ما من أحد سمعه. يخرج من سيارته ويتجه إلى مصعد البناية محاولاً أن يبدو على طبيعته. ينظر إلى وجهه في مرآة المصعد فيراها تبتسم له ودموعها تقع توسلاً «أن أبقني معكَ ولو أسكنتني قبو حياتك».

يجر حقيبته إلى غرفة نومه، يفتحها فيتنهد، رائحتها معه، لم ينجح رحيلها في نزعها عنه، كل شيء يؤكد حضورها وهزيمته. يبكي صمت العجز أو عجز صمته، لا يعرف، المهم أنه بكى رحيلها كما بكى أمه يوم وفاتها بعد أن عجز عن دفنها في مقابر القدس.

أفتح الحقيبة الحمراء، فتفوحين منها، تخرجين أريج عشق مخبئ في ثنايا القمصان، وطيات الملابس، ها أنذا أراك يا حبيبتي تنهضين باسمة بالضحكة ذاتها تفيض على كوني: طيف أبيض يتجمع طالعا من الحقيبة، عطر جسدك يملأ المكان يا امرأتي المستحيلة، يا امرأتي التي صاغت صباحات عشق لن تسقط من سطور الذاكرة.

زاد عمرنا الآن أربعة أيام، أفتحي روزنامة العمر السرية، وأضيفي إليها أيامًا أربعة. صباحات أربع، وسماوات عشق أربع، صباحات التوضوء بعيونك وضحكتك، والغرق في شفاه الأندلس والإغماض على صدر دافئ وحنون باتساع الوادي الكبير.

يقصد الحمام ليستحم فيترك جسده تحت المياه الساخنة دون أن يعدل من درجة حرارتها.

أكان يريد أن يعاقب نفسه على رحيلها بزج جسده في وجع أكبر من وجع فقدانها؟ دقائق ويخرج من الحمام ، يلبس بيجامته ويعد بعض الطعام لولديه العائدين من المدرسة. كان يستمتع بدور الأب الذي ينفذ تفاصيله بحرفية المحب، ولكنه اليوم أب مختلف، لم يعد بإمكانه أن يعود كما كان قبل السفر. الأندلس محت وأضافت حقائق بجرة قلم.

يتصل بها فلا تجيب: لا بد أنها مشغولة بتخليص أوراقها، يهمس بحزن ويتابع انتظار صوتها الذي يأتيه بعد دقائق مخنوقاً من البكاء:

هل ما زلتَ تحبني؟

يضحك تلك الضحكة التي يعرفها كل الباكين حين يخرجون من طقوس البكاء مرغمين:

هل سلمتِ حقيبتك؟

تتذكر أنها لم تسلم حقيبتها بعد.

نعم، كل شيء تمام.

تذكري أني أحبكِ.

احلف؟

بحياة حبك الأبيض أحبكِ.

تبكي وسماعة الهاتف ترتجف في يدها. الناس كثر من حولها، الكل يريد استعمال هاتف المطار الذي تستعمله.

حبيبتي لا تبكي. أريد أن أسمع ضحكتك قبل الرحيل.

لي عندك رجاء أيضاً.

ما هو؟

لا تستبدل رائحتي برائحتها الليلة.

يعض على شفتيه. كيف عرفت أنه لن يقرب زوجته الليلة؟ كيف أحست بعجزه عن لمس جسد لا تفوح منه رائحة الأندلس؟

حبيبتي لن أكون إلا معك الليلة.

تبكي بقوة وحرقة. تريد أن يحملها الليلة إلى سريره، الليلة، في بيته، في غرفة نومه، تريده لها ولو بقيت ليالي العمر تبحث عن أنفاسه فيبخرها البعاد.

حبيبتي، علي أن أنهي المكالمة، ابنتي على وشك الوصول.

أوكي. باي.

باي.

تنسى أن تعيد السماعة إلى مكانها. تجر حقيبتها وتعود إلى الكافتريا ثانية. تشرب فنجان قهوة وتدخن سيجارة وتقرر أن تراه مرة أخرى.

أيتها المسكونة بعشق يحتار فيه أرباب العشق جميعاً، ينظرون إليك من عل، يفتحون أفواههم وعيونهم مشدوهين مندهشين، ثم ينظرون إلي ساجدا وخاشعاً أمام محراب عشقك الأخاذ: تتساقط الآلهة من السماء إلى الأرض، ويلحقون بي، يخرون سجوداً وخشوعاً في معبد عشقك، أيتها الآلهة التي انتفضت من بين حروف الحب اللاهث، والشوق اللاهب، والجنون المقدس، لتصبح آلهة الكون، آلهة العاشقين، وآلهة العيون والدموع والحب الأبيض، الجميل، والمؤلم. ما أروعها هذه الآلهة، وهي تتقلب في كل أحوالها: حبيبة، ومشتاقة، ومشتهية، ومشتهاة، ومتعبدة، أتحسس جسدها فأرتعش، تنظر لنفسها في المرآة، فتخرج مني الآه، تنام وتغفو على وسادة الولع، فتحرقني أنفاسها، تستيقظ، فأرتشف القهوة من شفتيه.....أيتها الآلهة المطلة علينا، اركعي

عشقاً للعاشقين، وأمطري على الناس حبا كحبنا، وإلا لا تكوني، وتوقفي عن أن تكوني آلهة، فنحن من يستحق مقاعد الألوهية..

* * *

كم خيب أملها بمكالمة وداع تليق بحبها. يضم ابنته وعينيه تتلقفان دموعها على مسافة الألم الفاصلة بينهما. هي هنا، ما زالت هنا، وهو بين هنا وهناك يلملم ما سقط من حروفها ودموعها الراحلة في مركب الغياب.

ينظر إلى ساعته عند موعد الإقلاع ويبتسم. حبيبته تشق الغيم في طريقها إلى بيت الآخر، الآخر: أي وجع أقسى من وجود آخر في حياة المرأة التي نعشق، آخر ستأوي إلى فراشه، ستمدد جسدها على مقربة أصبع من جسده، آخر يعرف تفاصيلها ويشم رائحتها ويتجرأ على لمسها دون أذن منها أو.........

يتنهد وهو يتذكر صباحات العشق واسمها المختنق في حنجرته يناديه أن يطلقه خارج قفص الخوف.

كيف سيمضي ما تبقى من صباحات بعيداً عن جسدها وأنفاسها؟ مجرد التفكير بأنه لن يستيقظ على قبلاتها يجعله يرتعد وهو يتخيل نفسه في سرير امرأة أخرى..

لا تخافي حبيبتي..أنا رهينك الليلة. لن أنزع مساميرك عن جسدي، أنا المصلوب بك يا امرأة عشقي السرية، فلا تبكي، حبيبك الليلة مصلوب بك، رائحتك تملأ قبو جسدي وذاكرتي، فلا تخافي الليلة، حبيبك معمد بقبلاتك، فأية قديسة أنت أيتها الدمشقية التي تخجل من سحرها المدن..

تشق دموعها الطريق من المطار إلى بيته، فتزيد من وجع الفراق. هناك جرح ما في جسده، في روحه، في ذاكرته التي تئن تحت زحمة حضورها. يحبها، يعرف أنه يحبها الآن أكثر من قبل، أكثر من ساعة، من نصف ساعة، من أول يوم اشتهاها فيه، امرأة النص كما يسميها: أي حجاب هذا الذي صنعته له حتى تبقيه متعربشاً على زهر الياسمين واللوز أو أبعد . .

تأتيه صورتها هذا الصباح في أشبيلية، كانت تمسك ديوان درويش وهو خارج من الحمام، يرن في قلبه صوت جميل، أتكون قد استودعت درويش تذكار كلمات؟ يدخل غرفة نومه. يلتقط «كزهر اللوز أو أبعد» برغبة من يريد التقاط الأبعد، يفتح صفحة 63 قصيدتهما المفضلة ويجدها تكتب له «لن نفترق».

حروفها كانت خليطاً من الدمع والهزيمة، ولكن ما الفرق بين الاثنين، أليس البكاء نشيد الحرب معلناً نهايتها في لحظاتها الأخيرة، تلك الحرب التي لن يخرج بطلا الحكاية منها سالمين عند إطلاق صفارة الخاتمة، فكلاهما سيكون مهزوماً في زاوية ما من الحياة دون الآخر.

بيته يعج بالصوت بعد عودة ابنه من المدرسة. كان محتاجاً إلى تلك الأصوات حتى يخرج من سطوتها، كم أتعبه وجودها الكثيف في حياته، صور وكلمات وقبل وعناقات تعصر ذاكرته فيخرج منها وجع لم يكن ليتوقع أنه سيحكم به حتى النهاية.

يدخل غرفة مكتبه هرباً إليها، لا يتحمل زج نفسه في يوم لا يمكن له أن يكون عادياً. مازال محملاً برائحة الجسد الدمشقي الذي قدم له ولائم عشق تكفيه ما عاش من اشتهاء.

ما زال عبق العشق يتفتق من مساماتي اشتهاء لشفتيك، تنزل

وتطلع راسمة على تضاريس انتظاركَ قوس قزح .. تزرعَ في شفتي حقل قبلٍ وفي عنقي قلادات من الوله.

أفتح عيني لاصطاد عينيكِ المغلقتين على مجون، أرتجف وصدرك يشدني إلى موطن الحب، أغمض عيني وأعود من جديد الملم قبلاتك من مطارح جسدي المتحللة تحت صدرك، أسمع آهات العشق تتأوه وشفتيك غارقتين بغابات شبقي المحترقة، أطلق تنهيدة الحياة التي لايعيدها لي إلا قدومك إلى موطن جسدي، أشد شعركَ، أعشق شعرك بين يدي، تسبح أصابعي في عرق الشهوة المجنونة المنفلتة علي كحصان آتاني بلا لجام، حبيبي لماذا لم يتوقف الكون عند التحامنا؟ لماذا فك جسدي عنك وأخذ مني أهات العشق؟ أتنكر كيف قلت لي أخبري الكون حتى يتوقف. لكنه لم يتوقف، مشى الزمن وتركنا نرحل عن بعضنا بكل القسوة والوجع.. لم يرحم لقاءاً عبر المحيطات وجاء بك إلى حضني، إلى أصابع يدي تلمسك و تغزل من جسدك لوحة عشق مستحيل.. تشرق كل صباح وهي تستحضر طعم الشفاه التي نوبتني ، وأججت فيّ نار حكاية لن تتوقف عند حافة نهاية ما دام الواقع سيلبي يوماً رغبة المحال.

خيار ما كان ليستبدل بخيار آخر، لم يكن بإمكانها أن تفوت فرصة عناقه وبينها وبينه مسافة اشتهاء. أنفاسه التي وصلتها تغريها بالبقاء، حتى تتلمس آخر احتمالات الالتصاق به.

تتصل بزوجها «فاتتني الطائرة» تقولها على عجل وتمضي هاربة من كذبتها التي لم تبذل جهداً لاختلاقها.

الفصل الثالث عشر

يرمي مع حلول الليل جسده المنهك من الأيام الأربعة التي قضاها معها في مدن الحب حيث مارسا فيها العشق بأوجع أشكاله.

يمد يده ويلتقط قلماً ودفتراً، يخط اسمها على أول الصفحة فيخاله بداية التكوين وآخره. يتأمله كيف زف له خبر ولادة الحكاية وهو يخرج من فمها يوم اللقاء الأول. كان يقرأ في عينيها في أول صباح التقاها فيه نبوءة لم يفسرها إلا وهو في طريق العودة من دمشق إلى باريس، كان يبحث عن بطاقتها من بين كل الذين تبادل معهم ومعهن البطاقات الشخصية.

«لا بد ستعود، رائحة دمشق ستعيدك إليها»

ماذا كانت تعني بكلماتها حين عرفت أنها زيارته الأولى إلى دمشق؟ أكانت تعرف أنه سيعود إليها بعد عام ليحتفل معها بعيد حب على شموع لقاء نسجه الشتاء بأصابع عمرها من عمر دمشق؟

أجل، رائحة مدينتها أعادته إليها، ورائحة حروفها شدت له لجام الغيوم وأوصلته إلى بوابتها ليرمي بضياعه على عتبات قلب عساه يعوضه عن وطن.

في غرفة مكتبه ما زال يتأمل اسمها تحت ضوء رحيلها الخافت، يتذكر دمشق وحاراتها القديمة كيف راح يفك جدائلها

برفقة ابنتها التي لم تخش الوقوع متلبسة في حضرة عشقه، يلمس بأصابعه حروف اسمها ويتنهد.

أسواق مدينتها تبرق في عقله: كم كانت حبيبته تشع بريقاً حين كانت تقدمه إلى الحارات والأزقة والدمشقيون الذين ما زالت وجوههم تشبه القلاع في عتقها.

«لو كانت معي الآن؟»

تدخل زوجته العائدة لتوها من وظيفتها غرفة مكتبه وتقبله. يتحاشى شفتيها، يريد أن يبقي حبيبته مزهرة على شفتيه. اسمها الذي كان ينظر إليه بارتباك من ضبط متلبساً، بقي معلقاً على حبل مشنقة الانتظار.

حمداً على سلامتك..

يبتسم. .لا يقوى على الرد.

ماذا تفعل في الغرفة وحدك؟

سألحق بك.

تعال الآن.

تشده، فيقع الدفتر من حضنه على السجادة. لا يجرؤ على انتشاله، يمضي معها وتلك الحروف تستغيث به حتى ينجدها، فلا ينجدها..

يدخل غرفته. .فيرى امرأته السرية فوق سريره آلهة عشق تغني ليلة موعودة، يقترب منها على ضوء خافت، فيلتصق بها مغمض العينين، يشدها إليه بكل عزم الشوق لاستعادتها، تنتابه قشعريرة تلسع أطرافه، ليست هي، لقد رحلت ولم تعد على مرأى الشهوة الحزينة.

تقترب زوجته منه أكثر، تحاول مداعبته فتفشل. جسده الذي نسي فوق أسرة غرناطة وأشبيلية تفاصيل جسد زوجته يفقد الليلة ألفة التواصل معها رغم مرور خمسة عشر عاماً. يسمع ونظرات زوجته تربكه تراتيل العشق تنشد هزيمته من ضفاف وادي أشبيلية الكبير، فيتأكد في تلك اللحظات أنه لن يتمكن بعد ليالي الأندلس من أداء لحن آخر. صوت حبيبته كان يتنهد من قلبه ومن جدران غرفة نومه ومن وراء النافذة التي كانت ستائرها تطير في عتمة ليلة غريبة المذاق. شفاهه الليلة لا تلبيه، يداه لا تطاوعه على لمس امرأة لا تحمل في عنقها رائحة الشام ولا تاريخ بني أمية، يأخذ نفساً عميقاً وصورتها في التاكسي تأخذه إلى المطار حيث خذلها و عصى قلبه.

ما بكَ؟

تسأله زوجته وهو يهم بمغادرة الغرفة، فيحتار في الرد، تباغته بنظرة لم يتوقعها.

يبدو أني ما زلت متعباً من السفر؟

لماذا لا تنام إذاً؟

أريد الكتابة قليلاً.

وأنت متعب!

علي أن أنهي مقالتي الأخيرة لأرسلها الليلة.

يا ليتها تعرف تلك الحبيبة أن جسدها وجسدها وحده هو الذي يحمل عطر شهوة لن يقوى على تفاديه ما عاش من فراق.

لم يعد بياض الشهوة فارغاً، ها أنتَ تعود مجدداً إلى غرفتكِ، إلى سريركَ، ليخفت نداء جسدك إلي، ويختنق صوت رغبتك على وسادة لا تسمح لأكثر من امرأة بالتنفس على غطائها، ومع ذلك اترك

لي حبيبي لحظة عبث عشقية من ليلة أشتهيها أن تكون ليلتي. اتركني أزحف لسريرك وأنزع عنك الغطاء واستلقي على صدرك في غرفة نومك، أعدك أني لن أصدر صوتاً ينبئ بوجودي، سأقبلك بصمت و أمضي إلى حيث أنا، امرأة تطرز ليلها بانتظار رسالة تخبرني فيها صباح الغد أن الشمس لم تمح علامات زيارتي من ملاءاتك..

* * *

يسارع إليها، يريد اللحاق بحبيبته وانتشالها من عتمة الغرفة وهامش الغياب. يعرف أنها ستبقى على ذلك الهامش ما عاشت على ذمة عشقه، فيعذبه هذا العجز. يسمع صوت تنهيدة تخرج من حروف اسمها، «اشتقت إليكِ»، يهمس للورق وهو يشعل الضوء فوق مكتبه، يمسك القلم مصراً على استعماله بدل الكبس على أزرار الكومبيوتر. يريد الإحساس بها بين يديه وهو يكتب عنها، وهو يمسك قلمها الذهبي الذي أهدته إياه فصار رفيقه في كل البرامج التي يشارك فيها في التلفزيون تماماً كما وعدها.

صورة الوادي الكبير تجتاح غرفة مكتبه، تتصدر الجدران فتزين عتمة الليل بنجمة مشت معهما على ضفتي الوادي حين كان المستحيل يحترق على ضفتي شفاههما.

«كم خذلتها»، يتنفس بعمق فيخنق غصة تنزف على الورق دمعاً من كلمات. يستحضر الحكاية التي تسكنه وهو الساكن عالم امرأة أخرى، زوجته لا تعرف أنها فقدته منذ أن دخل دمشق في خريف 2005 ليخرج منها بقنديل حب لم يسبق أن رآه في كل المدن التي دخلها.

يمسك قلمها واسمها ويستودعهما درجاً في مكتبه. يقصد غرفة نومه عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

يراها على سريره ممددة كآلهة فوق ملاءات الغياب. يضع رأسه على الوسادة ويغمض عينيه. غيابها يحرق شهواته بعد أن شاركته أسرة الأندلس وخاطت معه تنهدات العشق على عباءة ليالي المجون العصية على التكرار.

لم يكن ليصدق أن الأندلس فتحت خزانات عشقها ونثرته فوق ملاءات الشهوات ومفارق العناقات ومقاهي القبل العابرة، الأندلس كانت مصممة على فرش حروف الحكاية في موطن العشق، وحزينة لأنها تعرف قدر الحب الذي يعبر مدارها.

في فندق المطار

اشتياقها الذي جرته من المطار إلى فندق قريب لم يكن ليغفو، بينها وبين عناقه ساعات. كانت مصرة على عدم الاستحمام منه. رائحته ما زالت شاهداً على أنه كان معها. تضع علبة سجائرها على الطاولة الصغيرة، وتتنهد: هيا أيها الليل، مر بسرعة، أريد أن أرمي تنهدات قلبي على صدره..

هل كانت لتتخيل منذ سنتين أن تكون هنا، في عتمة ليل غريب مسلمة قلبها لساعات تتأرجح بين هواه ومحاله؟

كانت بحاجة إلى شده من سرير زوجته في هذه الليلة بالذات. ليالي الأندلس كانت تمطر عليها صوراً خاطها المستحيل من جلدها وجلده حين حققا الحلم ودخلا بوابة الأندلس على هودج العشق المجنون..

كم أخذهما هذا الهودج إلى أماكن سجلا فيها تاريخ عبور، لم

يعرفا أن المدن التي دخلاها ستبقي بصماتهما على جدرانها. .كانت مصرة على الإخلاص لعاشقَين يعتليان غيوم الترحال ويلتقيان على جسور المحال. .

مسكت القلم، أشعلت سيجارتها وراحت تغازل الحروف ريثما يطلع الضوء. أتركض إليه، أتدق بابه وتقول: تعال نشعل شمعة لحبنا في معابد العشق عساها السماء تنصفنا وتجمعنا؟ ياالله كم تعبت من التفكير ومن حبه، ما هذا القلق الذي تعيش أناته لحظة بلحظة. صوت من بعيد يطمئنها «إنه العشق. .إنه القلق المتواصل».

تنفخ بسيجارتها التي لم تحبها يوماً وتكتب:

حين رأيت اسمي موشوماً في عينيه عرفت أن الحب الحقيقي هو الذي يدفعنا إلى تزنير خواصرنا بقنابل الاستشهاد. فالمقابل يستحق منا الموت، و هو كان يستحق مني الموت لأجل قضية العشق التي آمنت بها حين صدقت قلبي، فزنرت عمري بحبٍ ما كان ليقبل إلا بموتي حتى يبقى حياً، فيموت كما يموت كل يوم في وطنه أناس من أجل المستحيل، ومع ذلك يقبلون على الموت بشهية الحياة، يهبون غدهم لاستعادة أمس توارث بعضهم صوره، وبعضهم مفاتيح بيوته، وبعضهم حكايات رمتها ريح التهجير على قماش مخيم، وحبيبي كان منهم.

في صوته عبق القدس

نبرة تثير فينا شهوة لمدينة

في صوته تصبح القدس:

المشتهاة التي تغرينا. .

في صوته تنوح القدس:

كيف استأصلتم رحمي
ونسبتم لي شعباً
لم يسق الزيتون
في صوته تكفرنا القدس
كفاكم كلاماً
وخطابات
أين الخناجر
والقنابل
أين السكاكين؟

كان يفوح من لكنة حبيبي عبير الزيتون ليتعربش على أعمدة قلبي عريش عشق قدره الموت حياً منذ أن عرفت أن حلمي به كوطنه : أرض موصدة الأبواب حتى أمام أصحابها الأصليين. لكني ما فقدت شهية الحلم يوماً ولا وجعه، كان يظهر ويختفي في سماء الغياب كنيزك تائه يفترش حاضري المعلق على غيمة لقائه ليحزم حقيبة الترحال ويتركني ألملم ما بعثره بشفتيه وأصابعه حين وشم جسدي بكلام ابن عربي :

أدين بدين الحب أينما توجهت مراكبه
فالحب ديني وإيماني

كيف لم يخمن وهو ينزع عن عشقي النقاب أني سأعتنق حبه ديناً، واسمه وطناً يطارح مدينتي غراماً يؤديه المستحيل على منصة الحلم. .

حبه طوقني بجديلة القدس حتى النهاية؟ وصوته كبلني بأصفاد

انتماء إلى عروقه وهو يقرأ لي قصيدة «فرحاً بشيء ما» فوق غيمة لقائنا الثاني. .

* * *

السابعة صباحاً.

يجر جسده المتعب من سريره الذي عانقها فيه لثلاث ساعات. الجسد في حالات العشق حقيبة معبأة بالذكريات. ينظر إلى زوجته الغافية وإحساس الذنب يفتت قلبه. لم يشعر يوماً بأنه يخونها رغم مغامراته وعلاقاته العابرة.

كان يصطحب معه إلى أسرة ترحاله نساء شتى، يدعوهن لوليمة من الجنس السريع، كأي سناك يطلبه من أحد المطاعم البديلة عن مائدة البيت. ولكنه لم يصطحب في ذاكرة العودة أياً من أولئك النساء اللواتي يعاشرهن في غرفة ما في فندق ما. جسده المشبع بنساء عابرات كان يعود إلى زوجته بلهفة لا يفتعلها وهو يدخل غرفة نومه ويقفل الباب.

رائحة الياسمين الدمشقي ما زالت تفوح من مساماته بعد أن استودعتها حبيبته داخله، جسدها الذي ذاب في جسده ما زال يعزف لحن الوداع في كل خلية من خلاياه، ومع ذلك ما زال مصراً على البقاء في أوج رحيله.

كان في المطبخ يعد قهوته حين رن هاتفه. لم يتعرف على الرقم.

هاللو.

أحبكَ.

من أين تتكلمين؟

من المطار.

ألم تسافري؟ يسأل وتقع من يده الملعقة.

لا.

هل حدث معك مكروه؟

لا، لكني قررت البقاء لقبلة أخرى؟

مجنونة.

تضحك وأنفاسها لا تصدق أن النهار طلع أخيراً وأنها على بعد مسافة لقاء.

أعرف أني مجنونة.

وأنا أموتُ في جنونك.

أين نمت البارحة؟

في أوتيل المطار.

ولماذا لم تتصلي بي؟

لم أشأ أن أربكك بي؟

لا تقولي هذا ثانية.

يضحك وصورتها في كل مكان من بيته.

لا أصدق أنك بقيت.

متى سأقّبلكَ؟

الآن.. خذي تاكسي بعد ساعة إلى مونبراناس، كافية Dome وسترين يدي تحوطانك قبل أن تبحثي عني.

تطير حروف أحبكَ التي قالتها في أفق لم يعرفا الوصول إلى آخر مطافاته، ومع ذلك يمضيان فيه مغمضي البصيرة.

كنت أعرف أني لن استيقظ قرب جسدكَ الممدد على سرير العشق، كنت أعرف أني لن ألعب بشعركَ هذا الصباح، ولن أشد على ذراعيك لأتأكد من أنك حقيقة قربي. كنت أعرف أني لن أتبختر بأنوثتي أمام عينيك لأشعر بأني أجمل النساء وآخر النساء. كنت أعرف أني لن أهمس بإذنك أني أحبك حتى الثمالة، وأنكَ لن تقول لي «صباح الحب» وأنا ألتقط الحرف من فمك. كنت اعرف أني لست في الأندلس ولا في الجنة لأفيق على صدرك ومع ذلك صليت لرب العشق قبل أن أنام «يا رب امنحني صباحاً آخراً معه» فقد يهتز الكون وتجتاحه موجة شفقة، فأفيق وأراك على صدري لصباح آخر، لساعة نهارية أخرى.

أتوق لها تلك الصباحات يا عشقي الأندلسي .. أي حلم ذاك الذي عشناه؟ وأي إله محظوظ أنا كنته، أفتح عيني على فرحة العشق حولي وفوقي، هابطة علي ابتسامتك المقدسة تغمرني نوراً و صباحا وعشقا ولثما، أي تلك الجنة التي فتحت أبوابها لي بابا بابا، أرتع في رياضها، فما أن أنتهي حتى تفتح لي باباً آخراً في نعيم حب لا تنتهي مفاجآته، أي عشق هذا الذي راح يهتف حين ودعتك أيتها الأميرة: أن أبقي و لا تغادري، لا أعرف كيف وكيف وكيف، لكن هكذا كان، هتاف القلب يا آسرة القلب.

الوداي الكبير صار وادينا، ماؤه إغتسالنا ببحر العشق، وضفته المليئة بضحكات المارين والجالسين عليه وسادتنا التي نلقي عليها رأسينا، ثمنترك لشفاهنا تلحيناأغنية الوادي والعاشقين كما رسمتها حبيتي: نرجوك أيها الوادي الكبير خط لنا في دفتر عشاقك موعدا آخر، وأحفظ لنا الوسادة متألقة كما تركناها.

تفكك المستحيل بعد الأندلسيا حفيدة بني الأحمر، شهد عليك

الآباء والأجداد وانتعشت أرواحهم ببياض قلبك، تحركوا في قبورهم واكتست أجسادهم بالحياة.تحركت فيهم رغبات العشق وهم هناك. كأنما أتخيلهم يتقلبون بين قبورهم ويزحفون بحثا عن عشقهم، ويعلنون العشق حتى في موتهم. حبيتي هنا في بعث العشق ونشوره فعاد الحب المزروع في هذه المدينة من قرون السنين ليخضر وليرقص على ألحان قبلات الوادي الكبير ....إنه بعث الحب ونشور العشق وقيامة العاشقين أمام رب العشق، فماذا عساه الرب أن يفعل سوى إطلاق العفو الكبير ومناغاة العشاق».

يتصل بسكرتيرته لتلغي موعد الصحفية اللبناينة القادمة لرؤيته بعد ساعتين، يلبس بسرعة ويترك البيت بينما زوجته ما تزال نائمة. إنها هنا، يكاد لا يصدق، ولكنها اتصلت به من رقم فرنسي، من باريس، إنها موجودة، بقيت لأجله، ما زالت تطمع ببعض القبل وبعض أنات الوجع. يضحك وهو يدخل المترو: ما هذا الحب؟

هذا هو الحب. كيف يسأل عن الحب وامرأته السرية تطيح بكل شيء من أجل الحب.

لم يسألها بم بررت بقاءها؟ لم يسألها هل فوتت موعد الطائرة أم أنها تعمدت البقاء؟ لم يسألها كيف ستمضي الساعات المتبقية للقاء؟ كان لا يفكر إلا بأنه سيضمها من جديد إلى صدره ويقبل شعرها وفمها ورقبتها ويديها. يبتسم وهو مفتون بها: هذه العاشقة الأندلسية.

* * *

تدخل تاكسي ومعها حقيبتها. تسأل نفسها: كيف خرجت من الحروف ولبست نسيج النساء؟ أيعقل أني هنا، في باريس، بعيدة عن الشام كل هذا البعد لأعانق رجلاً ظننت لوقت طويل أنه لن يلبس يوماً لحم البشر ولا شهوات البشر ولا ضعف البشر، فها أنا

اليوم أتنازل عن حقي بأخذ استراحة من حبه، فأزرع انتظار لقائه بتمنيات اللقاء.

أجرها خلفي هذه الحقيبة التي تشبه قلبي المسكين

أرميها على رصيف هنا، ومقعد هناك، لا أبالي إن تعبت من الانتظار أو لم تتعب، لا أبالي إن بقي عندها قدر تحمل ضئيل لرحلات جديدة أقطعها لأصلك. حقيبتي معي، ما زالت معي، وقلبي معك، سيبقى معك، وأرصفة المحطات باقية ما دام بيننا وعد لقاء.

يأتيها صوت زوجها المستغرب تأخرها عن الطائرة «كيف حدث ذلك؟»، تفسر له أنها تأخرت بالوصول إلى المطار، وأنها ستضطر لانتظار الرحلة الثانية.

انتهت المكالمة وراحت صور ابنتيها تجرح مخيلتها. كيف ستعيشان يوم انتظار جديد؟ الدنيا تلف وتدور بها. تفوت الطائرة من أجل ساعات أخرى معه. وماذا عن الرحلة التالية، هل ستفوتها لتبقى، وإن فعلت، هل سيظل قدرها انتظاره في المطارات من أجل ساعتين أو ثلاث؟

أخلقتُ لأكون غابة لحرائق عشقه، كل شبر مني ينتظر لهيبه.. كل مسامة في جسدي تنتظر لسعة من ناره. أتراها حقول ذاكرتي اكتفت بما زرعه من صور، أم أنها مثلي تطلب المزيد وتحلم بالمزيد المستحيل..

تتأمل نفسها في مرآتها الصغيرة، كم هي تعبة، لم تغف ليلة أمس، كيف تنام وإحساس الذنب يقتلها، بناتها تنتظرنها وهي لم تدخل الطائرة من أجله

* * *

يركض إليها، يعرف أنها ستتأخر في القدوم، ولكنه لا يملك القدرة على البقاء في بيته. هواء باريس ينعشه، في داخله حريق يشتعل.

صوتها يرن في قلبه: أنا هنا،

و أنا هنا،

وهل بإمكاني أن أعانقك حين أراك؟

يأتيها من الخلف ويعانقها، يباغتها جسده وهو ينتشلها من الأرض ويدور بها على مرأى الضوء، يتحول الناس إلى أطياف لأطياف، لا يرى أحداً، لا يهتم بأحد، احتضانها يستحق خسائر الكون وهزائمه.

دموعها التي غسلت قميصه الأزرق تشارك دموعه هموم العشق الخائف من خاتمة.

حبيبتي، لا تذبحيني بدموعك أكثر..

سامحني لأني أورطك بي، لم يكن بإمكاني إلا أن أبقى، حبكَ بات المخرج والمأزق، فما من سلم طوارئ، وما من باب للهروب.

أأحاسبك، وأنا من عليه أن يُحاسب يا حبيبتي؟

تستسلم من جديد لشفيته،

يا الله .. يا الله

حبيبتي كم أحبكِ.

تبكي أكثر وقلبها المنتفض يصلي ليطول الحلم ويبقى المستحيل على قيد المعقول.

لم يكن قد تعب منها حين تركها تفلت من يديه وتضع رأسها

على صدره، لكن قواه لم تكن لتتحمل أنفاسها وهي تصيب ما يملكه من قوة في صميم تحمله.

يجر حقيبتها التي ما زالت تعبر معها طرق اللقاءات الوعرة ويقصدان المقهى.

سنبقى معاً أربع ساعات، ومن ثم تأخذين الباص إلى ديغول.

دعنا لا نتحدث عن المطار الآن، أريد أن أعيش الآن، من أجل الآن بقيت، فلا تلفظ كلمة المطار خلال الأربع ساعات القادمة، أريدك أن تنسى أني راحلة.

كيف ينسى أنها سترحل اليوم؟ صورتها وهي تودعه تنخر رأسه.

يضع جاكيته على ظهر الكرسي بينما عيناها تتبعانه وهو يرمي ذلك الجاكيت خارج جسده.

تتخيله يتعرى لأجلها. تبتسم وليالي الأندلس تتقد من تحت قميصه. تلتصق به فيضمها إليه بجنون الشوق ولهفة المودع. سيودعها دون أن يعرف متى موعد اللقاء المتوقع. لو تبقى، يتنهد وهو يردد أمنيته السرية.

كان يشدها إلى صدره ويأخذ نفساً من عطرها الجديد الذي اشترته من المطار.

ما أطيب رائحتك.

تقبل عنقه، تلمس بشفتيها تلك الشامة التي زرعتها الآلهة وسط رقبته. يغمض عينيه ويتوسل للسماء حتى تمضي هذه الساعات الأربع بخير. تقرب شفتيها من أذنه:

اشتقتُ إليك.

لا يجيب. صوت شهوته ينوب عنه راجياً إياها أن تبقى، أن تأخذ قرار البقاء من تلقاء ضعفها. ولكن كيف تبقى؟

أنفاسها تسبق سؤالها: هل نمت معها البارحة؟

يبادلها النفس بنفس أقوى «لم أخن جسدكِ».

ضمني أكثر، أفتح لي نوافذك وأبوابك جميعاً، أريد أن أتبخر في جسدك وأصبح فرض عشق يومي في لياليك.

من أين جئتِ أيتها الحبيبة؟

من هاتين.

تمسك أصابع يديه وتقبلهما وأنفاس الضوء تشاطرها حزنها.

ينظر في عينيها اللتين لم تتوقفا عن البكاء دون أن يجيب.

علينا أن نطلب شيئاً.

تضحك وهي تراه يمضي وعلى الطاولة هاتفه. كم تريد أن تمسكه، وتقلب في أرقامه، لكنها لا تفعل، بأي حق تقرب هاتفه؟

يعود ومعه فنجانين من القهوة.

تبدين رائعة هذا الصباح، جمالك يليق بباريس أيتها الحبيبة.

تضحك ويديها تمسكان بيديه. كم اشتهت في تلك اللحظات أن تعيش معه لحظات كهذه في صباح اليوم التالي. هكذا هي، امرأة لا تعرف استطعام اللحظة بقدر ما تفكر في لحظة الحرمان التي تليها.

بماذا سرحتِ؟

بنا.

أحبكِ.

وأنا لا أستطيع العيش دونك.

يقبلها، دائماً يستنجد بشفتيه حتى تغطي عجزه عن الكلام.

جسدها يترنم على صوت تنهيدته، وتنهيدتها تحرك بأصابع من نار كل خلاياه لتفوح منها رائحة شهوة تسمرت في مكانها وهي تشهد رغبة كل منهما بحماية اللقاء من فوران الجسد.

أريد أن أفضح لك سراً.

يهمس وهو يتابع تقبيلها: كنت على وشك أن أحجز غرفة في أوتيل لتمضية ساعاتنا الأخيرة، لكني لم أشأ أن نغرق في سرير العشق على حساب العشق نفسه. أردت أن أودعك وأسمعك وأقبلك وأشبع من عينيك.

وهل شبعت؟

يُسكت نهمه بقبلة ويغيب عن المكان.

كنا على بعد سرير ومع ذلك لم نقصده، كنا على بعد جسدين عاريين ومع ذلك التحفنا العشق فوق ملابسنا وحبنا المقدس.

السرير قريب والفرصة سانحة والوقت كاف لمطارحة عشق نغزو به باريس ومع ذلك بقينا نحتضر على طاولة الرحيل الحزين حتى لا نسجن رحيلنا بين حافتي سرير.

شهوتنا وقفت تتأملنا ونحن واقفان على عتبة احتراق:

ما حال هذين العاشقين؟ لماذا لم يأخذا غرفة في فندق ويمارسان الحب المشتهى؟ لماذا لم يعرِّها ولم تعريه ولم يخلعا الجلد عن الجلد؟ أهذه مرتبة في العشق لا نعرفها؟ أهذا تصوف في الحب لم نألفه؟

أتراها شهوتنا فهمت تخاذلنا عن إطعام جوعها؟ أتراها سامحتنا وهي ترانا نغرف من بعضنا ونشرب من بعضنا ونركع لبعضنا دون

أن نخلع عنا ملابسنا؟ أتراها حزنت لأجلنا وهي تراك تودعني وجسدك الممزق للمسي يسجد لي على طول المحطة أنك ستبقى لآخر حرف نكتبه تحبني، وسأبقى لآخر تنهيدة اشتياق أصبها على بياض الانتظار أحبكَ.

* * *

كان يرى عينيها وهما ترقبان عقارب ساعته. خوفها من اللحظة القادمة كان يلهث في صوتها، فتتلعثم وهي تتذكر معه مشاهداً من جنة الأندلس التي دخلاها.

حبيبتي، لا تنظري إلى الساعة، ما زال أمامنا ساعتان.

تبتسم بخجل. ساعتان وترحل. أكيد سترحل هذه المرة. لن تنفع معها حيلة الطائرة ولا أي حيلة أخرى.

يمسك أصابع يدها ويقبلها أصبعاً أصبعاً.

لا المقهى ولا الناس ولا احتمالات مرور واحد من معارفه يوقف اندفاعه نحوها، الرحيل سيغّيبها بعد قليل عنه لتختفي وراء غيوم البعاد كطير توجهه الرياح حيث تريد دون أن تعطيه الحق في البقاء أو الرفض، تكاد تتفكك عن جسدها. كل قطعة منها تنفصل عن الأخرى تحت تأثير شفتيه. لا تنطق بحرف استجداء، مصيرها كذلك الطائر الذي يعرف أن السماء لن تهبه هذا الفضاء. فضاؤها هناك، بلا صباحات ولا قبل ولا عناقات تسجلها في كتاب العشاق أنثى من الدرجة الأولى.

تتذكر حكم إعدامها، ترفع رأسها وتنظر إلى ساعته، الساعة آذنت بالرحيل، يهز رأسه وهو يرى دموعها.

حبيبتي، علينا بالذهاب.

ألا نستطيع الانتظار لقبلة أخرى.

يضمها ولا يتكلم. الباص لن ينتظر والقدر لن يؤجل حكم قتلهما أكثر..

هيا.

تنهض من المقعد المخملي ويدها في يده، تنظر خلفها لتلقي نظرة أخيرة على المقعد، فتراه يبكي لقاءهما.

ضجيج الناس لم يحل دونِ سماعها صوت الحب ينتحب من وراء تلك الطاولة التي لا تصلح بعد اليوم لحبيبين آخرين.

تمضي معه بصمت موجع. يقطعان الرصيف و يركضان إلى مقصلة الغياب خجلين من حبهما الذي يقف مكتوف الأيدي.

سيأخذك الباص إلى المطار مباشرة.

وأنتَ.

سأعود إلى المكتب.

زحمة الناس تعجّل في دقات قلبها. سيختفي بعد قليل، سترحل دونه، ما أوجع هذه الحقيقة.

الباص على بعد خطوات، بابه على وشك الإغلاق. يسرع ويضع حقيبتها داخله. لا يملكان دقيقة لقبلة وداع.

أحبكَ.

وأنا وحياة حبك أحبكِ.

تدخل الباص فيغلق الباب مباشرة. المقصلة تقع على رأسها. لن تستطع فتح الباب والنزول إليه. الباب مقفل في وجه حبها، لن تتمكن من العودة إليه وضمه حتى الموت.

ينظر إليها مسمراً في الرصيف، انتهى اللقاء وعاد الغياب يبسط

سوطه على قلبه. يلوح لها ويديه المرتجفتين تتوسلان له أن تلمساها للحظة جديدة ولكن نفذت كل الفرص، الحب الذي كانت أوصاله تتقطع على رصيف المحطة يرى دموعه ودموعها، يرفع راية انتصاره ويعلن هزيمتهما في هذه الحرب العاطفية التي لم يخذلا فيها محمود درويش.

* * *

في ديغول تجر حزنها وحقيبتها من جديد، هي راحلة، لا بد سترحل الليلة. نفذت من عندها الأعذار. أتراها ستخلعه عند عتبة بيتها؟ أتراها ستستطيع فك أصابعه من رقبتها وشعرها؟ لم تكن تفكر في الآتي، آتيها كان ينتظر كلماته، اقتربت من هاتف المطار لتسمع صوته المنتظر لها على جمر الحب الموقن من قوة ندوباته على جسد كل منهما..

أحبكِ.. أحبك يا حبي الأبيض، وتشهد على ذلك محطات المترو ومقاعد المقاهي وسماوات المدن التي وقعنا في دفاتر ممراتها أسمينا.

بكاءها يعلو فتتوه الحروف وتتلعثم الرجاءات. كيف ستصعد الطائرة وتترك كل شيء هنا؟ أمن السهل أن تعود امرأة عادية بعد أن عانقت الغيم ولمست السماء وسارت على ضفاف الوادي الكبير؟

أقسمُ بالرب الذي خلقكِ لي أني سأحبكِ حتى النهاية.

كيف سأعيشُ دونك.

أنتِ معي.

«أبقيني معك» همستها ولم يسمعها. الناس في المطار يرمون عليها نظرات استغراب.

حبيبتي أسمعيني صوتك، قولي أي شيء، أريد أن اطمئن عليكِ.

كان يحاول أن يخفي ملامح وجهه عن كل من في المكتب، أعراض العشق كالحمى لا تخفى عن أحد، كم يحبها، و لكـــن كم يقاومها..

«أبقي»، يهسمها ولا تسمعه. يأخذ نفساً عميقاً، لم تسمعه، لن تشاركه جريمة البقاء. صوتها الذي يأتيه من المطار ضعيفاً ومنهكاً يجبر نفسه على النطق ويقول:

يـشـهـد عـلـي رب الـعـشـق أنـي لـكَ ولـو لـم أرَكِ بـعـد اليوم........

يضرب جدار غرفته بقبضة يده.

تضع سماعة الهاتف في مكانها هذه المرة وتتركه في مكتبه يبكي. دموعه تتحدى قوته في أقسى لحظات عمره.

أمام نافذة الغرفة يقف مسمراً وعيناه تخترق السماء، ينتظر رؤية طائرتها عساها خطوط الطيران السورية تحن عليه وتمر من فوق مبناه. يرن هاتفه، فلا يسمعه، صوتها كان كل الأصوات الممكنة السماع في تلك اللحظات بالذات.

يخفق قلبه فجأة، حان موعد إقلاع طائرتها، ينظر إلى ساعته، فيتأكد من أن الوداع يلملم ذيوله ليأخذها. يفتح النافذة ويشم هواء باريس، نسمات أخيرة تبخر عطرها في سماء الكون وتتركه مع طيف الأندلس.

تغادرين وأنت في القلب ... نظرت إلى الساعة لحظة موعد مغادرة الطائرة، تخيلتك تحلقين في السماء، طيف عشق يمطر حبا على الأرض، ترسمين قوس المحبين من غرب الماء إلى شرق الماء،

تلملمين بياض الغيم في سماء استحلفتها بأرباب العشق أن تحضنك وتوصلك إلي بدفء وأمان. تخيلتك تكتبين ببياض الغيم ذاك حكاية عشق مجنونة في صفحة الفضاء، يراها كل الناس، وتقرأها الطيور ويقتبسها الإله في كتبه المقدسة، ويعيد نشرها من جديد.

تغادرين وأنت في داخلي، ترن ضحكتك الساحرة في ردهات قلبي الذي يغني بحبك، قلبي الذي عاد مراهقاً وولداً فرحاً يركض في شوارع أندلسية ضيقة وراء حبيبته الشقية. أرأيت كيف صارت الأندلس حقيقة يا أجمل حقائقي بعدما كانت حلماً يا أجمل أحلامي أحبك..

أحبك حتى آخر قطرة ندى أندلسية لم تأت بعد.

* * *

تسلم التذكرة للمضيفة وتلحق ببقية المسافرين. لم تكن تشبه أحداً على متن الطائرة. وهج الأندلس كان يفضح سرها وهي تمارس حزنها علناً على مرأى أناس عاديين لم يركبوا مثلها هودج العشق في زقاق غرناطة ووادي أشبيلية الكبير.

تهمس المضيفة بابتسامة خبيثة «مقعدك قرب النافذة» ثم تمضي في حال سبيلها. أتكون قد تواطأت مع الكون ليمنحنها نظرة أخيرة. تجلس بهزيمة من لا يقوى على لملمة أشلائه وترقبه من النافذة. تراه وهو ينظر من مكتبه إلى السماء، ترى دموعه، تمد يدها إلى وجهه، تلمسه، تأخذ نفساً عميقاً: حبيبي لا تبكِ، البكاء ممارسة نسائية لم يعتد الرجال على أدائها وهم يقطعون بالفراق حبل وريدنا.

صوت يعلن إقلاع الطائرة، يرفع نظره إليها، تراه لآخر مرة، الطائرة تسحبها منه، تحملها وتركض بها وهو في مكانه لا يجرؤ على مد يده والاحتفاظ بها، «حبيبي إني راحلة، ألن تبقيني قربك»، لا يصلها رده، الطائرة تبتعد أكثر فأكثر عنه، وهي محجوزة في مكان لا تفتح فيه نوافذ ولا أبواب. عشقها يمد السحاب بمؤن تكفيه لمائة عام. ها هو عشقها يمطر على باريس، تشعر وكأنها تملك غيثاً من العشق يكفي لإغراق الكون. نظرها المعلق في السماء لم يتعب، الطائرة تترك باريس وعيناها لم تتركانه. يد المضيفة توقظها من سهوتها.

كم الساعة؟

مضى على إقلاع الطائرة نصف ساعة، ألا تريدين وجبة العشاء؟

لا، شكراً.

كانت تشعر ببرد يخترق جسدها الذي شعرت به ضعيفاً تحت وطأة الوداع. متعبٌ ذلك الشعور الذي نحمله ونحن نخرج من لقاء من نحب، إحساس غريب بالانكماش على أنفسنا وإغلاق جميع نوافذنا كيلا نفقد رائحته أو حرفاً من كلماته، فنحاصر ذواتنا من خارجنا حتى نبقي عبير اللقاء في زجاجة الذاكرة، معلقاً على عناقيد الجسد.

كل شيء بدا لها مغلقاً وهي معلقة بين الأندلس ودمشق، الكون كله مغلق الآن وهي تمتطي الفراغ، تحاول أن تأخذ نفساً عميقاً ولكن الطائرة بدت لها قبراً من المستحيلات. نفسها يضيق وإحساس الموت الزاحف على رؤوس أصابعه يلف عنقها فيزيدها دنواً من النهاية.

تطلب من المضيفة بعض الجرائد بحثاً عنه، تجده، تسرح في اسمه الذي لن تحمله. تقلب في عناوين مقالاته الموزعة في أكثر من جريدة، تريد أن تعرف ما إذا كان وفى بوعده يوم أقسم في أشبيلية أن يخط اسمها بين كلماته.

تعود بالذاكرة إلى تلك المرة التي قرأت اسم زوجته في إحدى مقالاته، لم تكن قد سمعت اعتراف حبه يوم شعرت بمرارة الغيرة من المرأة التي تسكن حياته في مكان شرعي مرئي للعالم كله. قرأت المقالة في ذلك الصباح ما يزيد عن عشر مرات، كانت تمعن النظر في حروف اسمها وتحاول أن تنفك من إحساس الغيرة الذي استغربت تأثيره فيها وهي امرأة النص التي اتفقت معه سراً على إبقاء النص مسرحاً للقاءات عائمة في فضاء العشق الأبدي للحرف والكلمة.

لم تكن لتشك في أن تصاب بهذا الكم من الحزن لوجود امرأة ثانية في حياته، امرأة شرعية وحقيقية كحقيقة الضوء.

مقاله يومها كان عن أبناء التهجير كيف حاكت لهم الأقدار مصائر لم تكن لتدون خطوط حياتهم لو بقيت فلسطين الوطن لا الكوفية المعلقة في رقاب المهجرين.

لم تخمن حينها ولم يخبرها لاحقاً أن اسم زوجته لم يأت محض صدفة، لقد تعمد ذكره في المقال خوفاً من احتمالات كانت تتراءى له بين سطور النصوص التي يتبادلانها، رسائلهما البريدية التي تحولت إلى طرود من العشق غير المعلن كانت تدق ناقوس الخطر، الشوق والانتظار والترقب واللهاث: أيعقل ألا تكون مؤشرات لعاصفة مشرفة على الهبوب.

شركاء اليتم كان عنوان المقال الذي أهداه إلى زوجته قائلاً: «أحبكِ لأنك مثلي يتيمة وأمك تعيش وراء حواجز تحيل الوطن إلى مستعمرة والأرض إلى رهينة».

اسم زوجته الذي فكر طويلاً قبل أن يكتبه، كان السد الذي حاول بناءه ليوقف سيل العاطفة الجاري من تحت الحروف، ومع ذلك لم يتوقف شيء، السيل كان يعرف وجهته جيداً، صميم القلب وحنجرة الروح.

تبحث وهي تبكي في الجرائد عن وعده، لم تكن تريد في تلك اللحظة أكثر من قراءة اسمها في واحدة من مقالاته، فكرة أن يقحم اسمها في كتاباته كانت تثيرها منذ أن سألته تدوين اسمها بخيط رفيع يربطها بواقعه ولو كان مثل حقيقتها: خيطاً سرياً لا يراه أحد.

رأت اسمها في الجريدة التي تصدر من لندن، إنها المقالة التي كتبها بحضورها في أشبيلية. وفى حبيبها بوعده، وجدت اسمها منقوشاً في مقالة عن عتبات المدن التي دخلها رجلاً بلا وطن. كم احتال حبيبها على القارئ حتى يزج باسمها في رحلة بحثه عن انتماء.

كانت تنظر إلى حروف اسمها لترى في ظل تلك الحروف وطناً بكامله اسمه دمشق، بوابة عشق فتحها يوم قرر التاريخ وضعه على عتبة امرأة تحمل في عطرها ياسمين مدينة.

وفى بوعده، قالتها ثانية وهي تقرأ امتنانه لدمشق: «الشام، يا امرأة الشهوات المسيجة بأسوار من هيبة».

أنا هي، لكل من لا يعرفني، أنا هي، مدينته السرية التي لا يقوى على البوح بوجودها في جغرافيا حياته، أنا هي، تتلفت لمن

حولها، تبتسم ودموعها تبصم على حقيقتها: أنا هي، مدينته التي لم يختصرها بتذكار امرأة جميلة ضاجعها ومضى بحثاً عن ميناء آخر، أنا من كتب عنها، أنظروا إلي، ألا أشبهها؟ ألا أذكركم بملامحها: مدينة يعبق من حاراتها ياسمين العشق حتى يكاد يهلكك، ومع ذلك لا تهلك.... في جسد ياسمينها تعويذة تبقيك حياً فقط لتواظب على عشقها ما عشت، ولتدمن عطرها كلما حاولت البحث عن عطر بعيد عن عريشها..

أسقط عليكَ مطر عشقي وأنا في السماء

هكذا كنت أقول والطائرة تعلو فوق مدينة اللقاء الأخير، كنت أحاكيك وكأني أخزن مشاعر الوجع لموعد الصباح، فإذ بي أقرأك تكتبني بالحروف ذاتها، «طيف حب يمطر عشقاً على الأرض» قرأتك و دموعي كانت تسقط بعشق العشق الذي لم يعد يستغرب التقاؤنا.. أهذا حب أو نوبان كما قلت أم تعبد، كل شيء من حولنا يقول حب، مطارات عبرناها وتركنا على جدرانها أطياف قبلنا، قطار افترشنا جوه بضحكاتنا وكلماتنا التي لا تنتهي، محطة الباص التي حرمتنا من وداع يليق بعشقنا، فسحبتني من بساطك دون أن أقول لك ألف مرة أني أحبك.

تلك المقهى كم أصبحت أحلى وهي تمنحني فرصة اللجوء إلى جدرانها كي أفرغ شهوتي في فمك المعشوق فلا أشبع، كل شيء في الكون يبصم على أن حبنا حالة تعبدية خالصة، فأي شفاه مغرية هذه التي أشتهيها، أي جسد وأي روح وأي حب وأي صدفة وأي لقاء وأي مدن وأي وأي وأي، كلها تشي بحبنا لحبنا أن ارحم يا حبهما هذا الوله وامنحه فرصة التلاقي على أرصفة محطات غير متوقعة

لتستقبل السماء مطر عشق يحمله كل منا للآخر حين لن نضطر لاعتلاء السماء من أجل لقاء على الأرض».

* * *

صوت المسافرين يوقظها. الطائرة تحط على أرض دمشق، والجريدة التي كانت بين يديها حين غلبها الدمع ونامت ما زالت في يديها، متشبثة بها حد الخوف من التلاشي. لم تكن تحلم، تعلم أنها لم تكن تحلم، تعاود النظر إلى اسمها، فتعرف أنه وفى بوعده وكتب اسمها في مقالته.

تتجه إلى حقيبتها المتعبة، تنتشلها وتغادر المطار.

يأتيها هواء الشام، تأخذ نفساً عميقاً. توقف سيارة تاكسي :

المزة لو سمحت..

يوم عادٍ في دمشق تجره ساعات الوقت ببطء، كل شيء في تلك المدينة كان في مكانه، بوابات دمشق، الجامع الأموي، حارات الشام العتيقة، قصر العظم، أسواقها، خاناتها، كنائسها، جوامعها، حماماتها، جبل قاسيون، المدينة تنبض ككل يوم لتكبر يوماً في عمر التاريخ الذي لا يمكن أن يسقط منه وطن كوطنها ولا حكاية كحكاية الحب التي خرجت من حارات ذلك الوطن.

كانت تتساءل وهي في سيارة التاكسي، لماذا لا نستطيع حزم ذكرياتنا في حقيبة ورميها في قبو مظلم لا يصله ضوء مخيلاتنا، ألهذا الحد يستحيل علينا التخلص من ذاكرتنا وإغلاق مسامعنا كيلا تصلها أنفاس من الماضي؟ كانت تعرف وهي تبكيه أنها رهينته حتى آخر لحظة تتنشق فيها اسمه وتقوله في زقاق أنفاسها..

كم تمنت حين وضع سائق التاكسي حقيبة سفرها في السيارة أن يخفف من ذاكرتها صوره وكلماته وكل لحظة تنفست فيها معه، ولكنه لم يكن معها في الأندلس ليفهم صعوبة أن تمتلئ ذاكراتنا للسقف دون أن نتمكن من الاستراحة من عبء ما نحمل..

بقيت ساكتة وهو يردد «نورت الشام» بذلك الصوت الحقيقي الذي لا نسمعه إلا من هؤلاء الأشقياء المصرين على مزاولة مهنة البقاء. لكنته الشامية جعلتها تبتسم، تنظر إليه فترى كيف تحيا الابتسامة بين تجاعيد سقتها القلة ومع ذلك لا يمكن إلا أن تراها جميلة وهي ترد عليك حين تسألها عن حالها «كل شيء من الله كويس».

تحب هذا الرجل الذي لم يسكت دقيقة واحدة منذ أن رأته. كان يسأل ويجيب لوحده، يساير نفسه قبل أن يسايرها، ويفرج عن حاله، قبل أن يفرج عنها، رجل يطوف الشام منذ طلوع الفجر دون أن يستغيث من هذه الدوامة التي لا يعرف العمل إلا على عجلاتها.

تسأله وصوت فيروز يحول سيارة التاكسي إلى عربة في عالم معلق على غيوم السماء الدمشقية الصافية: أتحبها؟

فيرد: فيروز هي المرأة الوحيدة في العالم التي لا يشتهي رجل أن يسكتها. صوت فيروز الذي أبرم على ما يبدو اتفاقية مع الأندلس شل كل الأصوات الأخرى التي كانت تأتي من زحمة الشوارع فحجزها مع صوته وكلماتها تغني «حبوا بعضن، تركوا بعضن».

تقطع التاكسي شوارع دمشق التي لم تلاحظها وهي الغارقة في أندلسها وأندلسه، طيف الأندلس يلاحقها، يستهدف ذاكرتها حتى يكاد يدميها، أقدر المخيلة أن تعلق هناك، في مدينة خلقت للعشق

ولهما؟ أي حكاية هذه التي مدت لهما أرصفة ممهدة للقاء عاشاه وراء أسوار المنطق وحدود الأمكنة؟

أكانت هناك حقاً؟

أكانت هناك تمتطي الفرح وتزرع برفقته الأرض حباً وجنوناً، فيطيران على بساط السندباد تارة، ويمشيان تارة حتى لا يسقط من مذكراتهما مكان واحد لم يعبراه أمامه.

فاليوم صار لهما أياماً وماض جميل، لم تعد امرأة الظل، الظل تحول في الأندلس إلى امرأة من لحم ودم تزحف على جسده في الصباحات الأربعة والليالي الأربعة لتعبئ منه قدر استطاعتها مخزوناً لأيام الغياب . .

تستدعي مشوارها الليلي معه في قصر الحمراء، تتذكر كيف كانت تعد أصابع يده اليسرى، خمس أصابع، كانوا خمسة أصابع، تعرف للمرة الألف أنه حقيقة، وأنها معه في أندلس المستحيل ومع ذلك تخشى على قلبها من كل هذا الفرح.

الفرح في ساعاته السحرية يرعبنا، يدوخنا من نشوته ومن مفاجأته كأنه يحمل في مجيئه نبوءة شؤم تفوق استمتاعنا باللحظة، ما أتعسنا، حتى اللحظة يستكثرها الفرح علينا.

كم أعشقها تلك الغرناطة، نهاراتها النديه بقبلاتنا ومساءاتها الطويلة بهمسنا وكلامنا ومشاويرنا، أكنا نعرف أنّا لن نحظى بهكذا غرناطة بعد ليالي الأندلس؟ أكنا نقرأ على سطور أقدارنا أن من يعيش الأندلس مرة لا يظفر بأندلس أخرى؟ لا لن نسأل ونحتار، كنا نعرف أننا نعيش المستحيل على ضفاف الوادي الكبير وفي حضرة العشق الزيتوني وشوارع أشبيلية التي أنهكتنا حد العجز عن تبادل قبلة قبل فجر ها الأخير..

يلمح السائق دموعها، يتابع قيادته وتتابع فيروز ذبحها وتتابع غرناطة تشريح الحكاية التي آوتهما على وسادة واحدة في أول ليلة أندلسية.

قبل الحب يكون الكذب إثم لا يقربه مؤمن، وبعد الحب يصبح الكذب عقيدة وطريقة، فكيف لها أن تركب على هودج العشق وتزف له عروساً في عتمة الأندلس دون أن تعتنق الكذب حتى تصل إلى صدره.

* * *

يصر صوت السائق على استحضارها من الأندلس: أين كنت يا مدام؟

في الجنة، تجيبه دون تردد، فيضحك باستغراب: وهل هناك جنة غير الشام؟

تتوقف السيارة أمام بيتها، تتقدم بخطوات بطيئة إلى المصعد، تدخله ومعها حقيبة السفر وحقيبة الصور، تنظر في مرآة المصعد وتطيل النظر إلى ذلك الوجه الحزين، تضيء أرقام الطوابق بالتسلسل حتى تصل الطابق الخامس، تخرج من المصعد ومعها قرار الطلاق.

لن يفتح جسدها ستائره بعد الأندلس، الوادي الكبير يرسل لها برقية امتنان، لن تخونه هذه العاشقة ولن تبيح جسدها لأكثر من رجل، جسد المرأة لا يتناوب عليه رجلان، على الأقل المرأة التي جربت المستحيل ودخلت الأندلس من بوابة التشريفات.

* * *

في ومضة عين انتهت الحكاية، تشربها الزمن حتى آخر رمق، حزمها في حقيبة صغيرة وسلمها إلى القدر برهان فراق.

كم ضاقت عليه باريس بعد آخر قبلة، ضاقت المدينة، وضاق أفقها وعاد إليه إحساس العزلة الذي قهره على أرصفة القدس وحضن أمه.

لم يكن من السهل العودة إلى ما قبل الأندلس، آهات الليل شاهدة على استحالة النسيان، ما زالت تعبئ مسامع الشهوة على وقع خطى الفراق، فتزيد لهيب الشوق المدرك استحالة اللقاء.

تأجل لقاؤها بنزار حتى صباح اليوم التالي. لن يتمكن من ترك ضيوفه القادمين من تركيا في المزرعة كما أخبرها.

لم تعاتبه وهي تسمع عذر غيابه. ابتعاده عن البيت سيمنحها بعض الوقت لتحزم سرها وتلملم الذكريات من غرف البيت وحيطانه.

الليل كان سخياً بأطيافها، فتح بوابات دمشق السبع أمامه ليراها من لحظة التكوين حتى اليوم، حائط دمشق الذي كان أول حائط على الأرض بعد طوفان النبي نوح ينصت إلى صوت البكاء العابر الكون، دموع تسيل من عينيها: تلك القدس الجميلة الساكنة قلب السماء، لم تكن صدفة أن تفتح القدس بواباتها السبعة في أول ليلة لهما بعد الأندلس، ولم تكن صدفة أن يكون لدمشق وللقدس سبع بوابات، كان يراها عبر بوابات مدينتها لقاءات وعناقات تنصبها دمشق عناوين حارات في مدينة العشق، على مرأى الليل وفي أهداب الهوى تنهض العتيقة دمشق من عرشها وتفتح بوابة اللقاء الأول.

رأها تنثر من ياسمينها حروف الحكاية على صفحات القلب المعلق بقدس بعيد، تفتح بوابة أخرى فتدخل غرفة العناق الأول مرتدية عبثية الحب التي لا تبحث عن ميزان.

الحب لا يلتقي مع موازيين، معادلته لا تقبل لغة حسابية أو منطقية. يراها تقترب من نافذة الغرفة، تنتظر لهفته لتطفئ لهفتها فيشتعل الاثنان. دمشق تتقدم بوقارها لتفتح أمامه باب توما، يراها تخرج مفاتيح شامها وياسمينها وتفتح بوابة البيت العتيق، همس الياسمين يصله عابراً مسافات الشوق، يتسلل إلى روحه، يوشوشه أن تعال إلي، احضر زهر لوزك وابق معي، معها، في حضن شام يتسع للجميع.

صرير الأبواب يهزم ذاك الصوت الساكن داخله منذ أن صار والقدس على بعد مستحيل، أتراه تعب صوت الزئير وقرر السكوت على عريش الياسمين وصدرها أم أنه يأخذ استراحة قبل أن يدخل متاهة جديدة تنتظره في مفرق مقبل؟

القدس تخطو باتجاهات بواباتها مستعجلةً إدماء ذاكرتها. تراه يكتب اسمه على صدر البياض في أول اللقاء، كان يعرف أنها ستحضن تلك الحروف في كواليس الضوء، كان يعرف ذاك المقدسي ضعفها أمام الحرف.

لم يتعب وهو يحشد جنوده السوداء في ساحة الغزو البيضاء، أطلقه ذلك الحرف فوقع قبلها مصاباً به، دم أسود يجري على الورق مسطراً من غير هوادة فاجعة العشق وسقوطه. القدس لا تملك صبراً على فتح بوابة أول قبلة. كلاهما ينضح بشهوات راكمتها الحكايات فوق شرفات أبطالها وراحت تعتلي رغبة مجنونة لا تملك الشفاه قدرة على إطفائها، ومع ذلك يقربانها ويعلنان استعدادهما للاحتراق فيها.

أندلس الحكاية تدخل غرف غرناطة وأشبيلية، تتعثر بحقيبة نسيها المستحيل على أرض العبور فتقع، لن تنهض، لا تريد أن تتعافى من مرارة اللقاء.

بوابة قصر الحمراء تفتح أمامهما ليلة الدخول. يتكئان على ظل عازف أبقاه الأمويون حتى بعد السقوط.

جدران القصر التقطت لهما صوراً تذكارية خوفاً من سكرات الشوق أن تفقدها الذاكرة.

وادي أشبيلية الكبير يعلن اعتصام مياهه، ما من قوارب لحكايات جديدة، الأندلس وقعت على صك الوجع لحين العودة بينما تتلقفهما ليلة حزينة لا وقع فيها لتنهيدة ولا ظل لعناق.

انتظريني أمام ياسمينة الشام في البيت العتيق..

يكتبها بسرعة اللهفة. لم يكن بحاجة ليبحث عن نهاية. لن تسمح له الأندلس بنهاية أخرى. يتأمل الحروف التي تمنت أن يكتبها، يجول بين مدن العشق الثلاثة، يصافح الأزقة والخانات ويلقي بحمولة الغربة على صدر بوابات المدن العاشقة أن افتحي لي طريق العودة، لم أعد أحتمل الضياع عن صدرها..

يلتفت يميناً ويساراً، يحاصره قلب متيم يريد سجن عشق ربياه معاً كطفل ينتظره الكون كله، يشير للعقل المجرد بالابتعاد حتى يضغط على زر send، يمد أصابعه ليضغط، يضغط أم لا يضغط، يضغط أم لا يضغط، يضغط أم لا يضغط، وكأنما لا تريد الحكاية أن تنتهي...

النهاية

سهى هشام الصوفي

سهى الصوفي

سرداب العشق

تعد "سرداب العشق"، أول تجربة روائية للسورية "سهى الصوفي".. وقد صيغت بلغة شعرية شفافة وبلاغة سردية جمالية، تأسر قارئها من بداية النص إلى نهايته.. وتحكي قصة حب جارف يتصادى فيها صوتان: سوري وفلسطيني، وهو اختيار دال ورمزي يجاوز المعنى العادي للحب، إلى عشق الوطن ومعاناة مرارة الظرف السياسي.. ولعل في استحضار وتمثل تجربة الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش، ما يعضد ويقوي المعنى المنتج في الرواية..

إنها تجربة تستدعي متعة أكثر من قراءة.. وفي الآن ذاته هي مؤشر على كفاءة واقتدار من صنعة روائية تكسر تقليدية السرد المعهودة.. وللقارئ أن يكتشف ويقف على ذلك بنفسه...

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء:ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت:ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-532-0
9 789953 685328

لوحة الغلاف: تفصيل من بيكاسو